المواطن العالمي

رؤية في المشتركات الجامعة

دراسات

د.ثابت الأحمدي

د. ثابت الأحمدي

المواطن العالمي

رُؤيَة في المُشتركات الجَامعَة

اسم الكتاب: المواطن العالمي.. رُؤيَة في المُشتركات الجَامعَة
اسم الكاتب: د. ثابت الأحمدي thah71@gmail.com
نـوع العمل: دراسات
عدد الصفحات: 147
الرقم الدولي EBIN: 221227-199-1-16
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2022م / 1444هـ

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من المؤلف. ©

د. ثابت الأحمدي

المواطن العالمي

رُؤيَة في المُشتركات الجَامعَة

كلمة للنشر الإلكتروني

تـقـديـم

تحليق معرفي متسامح في آفاق لحظات كئيبة

بقلم: الدكتور علي محمد زيد

إذا كان أيُّ كتاب لا يصرفُ نظرَك عن الكم الكبير من الصور والمعلومات والمعارف التي تتدفق عليك دون توقف، ولا يشدك للإقبال عليه، ولا يهز مسلماتك الكسولة، ولا يغريك ويجتذبك للقراءة بما يُقَدِّم من جديد ربما لم تقرأ مثله من قبل، وقد لا تجده عند غيره، ولا يدعوك للتأمل، ولا يحاورك ويستفزك أحيانا، ويثير حميتك للتعليق وكتابة الملاحظات والتوضيحات والجدل والحجاج للإضافة وربما للتعديل، فهو لا يستحق القراءة ولا تضييع وقتك الذي قد تقضيه فيما هو أهم وأنفع، وعندها عليك بالانصراف عنه بسرعة بمجرد الالمام السريع بمحتوياته.

وكتاب د. ثابت الأحمدي بعنوان «المُواطِن العالمي . رؤية في المشتركات الجامعة» نصٌ من النوع الذي يستوقفك ويستدرجك للقراءة حتى لو كانت مشاغلك كثيرة. يُشعِرك منذ العنوان بأنك أمام تفكيرٍ جديد في قضايا العالم المرتبك الذي تعيشُه وأنت تنتهي من العقدين الأولين من القرن الواحد والعشرين، في منطقة غارقة في الحروب وتعاني من الخيبات والإحباطات الكبيرة، وتشهد صراعاتٍ قاتلة ومثبِّطة للهمم وللعمل الجماعي المتضامِن في سبيل الخروج من جلباب التاريخ المظلم، وتعيق التعامل مع عالم مرتبك لم يعد كما كان في بعض فترات القرن العشرين أنموذجا يطمع

الكثيرون في منطقتنا باللحاق به في جميع مجالات البناء والتطوير ومكافحة الفقر. ويزداد إغراء قراءة هذا الكتاب إذا كنت من بلد كاليمن، عصَفَت به الصراعاتُ والحروبُ وألحقت به الكثير من الدمار والخراب، ويعجز عن العثور على مدخل عملي لإعادة نسيجه الاجتماعي على الأقل إلى سابق عهده الجمهوري، ناهيك عن بناء «مواطَنَة» جامعة بين أبنائه للتضامن في العمل معًا في سبيل بناء «وطن» يتسع للجميع ويسمح للجميع بالمساهمة في بنائه ويوفر لهم فرص التفتُّح وتحسين شروط حياتهم على نحو يحررهم من سطوة ماض بغيض يجثم على صدورهم ولا يريد أن يتزحزح.

ليس هذا الكتاب دراسةً مفصَّلة مدعَّمة بالمراجع والتواريخ للتيارات الفكرية والفلسفية والدينية التي يذكرها؛ بل «رؤية» في هذه التيارات، تطوف بك في آفاق الفلسفات والأديان، من الأديان التوحيدية إلى ما يسميها المؤلِّف «الأديان الأرضية»، أي غير السماوية، (كالكونفوشيوسية والزرادشتية والبوذية والهندوسية)، ويمر عليها بعقلية منفتحة، على أمل الوصول إلى مشترك عالمي بين جميع البشر يدعو إليه بالقول «ولَمَّا كان بنو الإنسان يقطنون جميعا هذه الرقعة الجغرافية الواسعة والمترامية الأطراف، وهم متساوون في الواجبات التي تقوم عليها مصالحهم الدينية والدنيوية، فإنهم بالمقابل متساوون في الحقوق المشروعة لهم على ضوء هذه الواجبات التي تُفصِّلها وتُبيِّنها قوانينهم ... لا يطغى أحد على أحد». ينطلق في ذلك من إيمان بأن المشكلة ليست في الدين الذي غرضه ترويض الغرائز الحيوانية وتهذيب النفوس وفرض قيود أخلاقية تمنع العدوان على الغير وعلى حقوقه؛ لأنه يرى أن المشكلة تأتي من تاريخ المتدينين الذين

يستخدمون الدين وسيلة لتحقيق أغراضهم ومصالحهم الدنيوية الأنانية، بما يقود إلى اندلاع الحروب؛ لذلك يُميِّز بين «الدين» و«التديُّن»، ويستشهد على ذلك بالإرهاب الذي يوظف الدين الإلهي لغايات بشرية قاصرة.

ويرى أن يكون للدعوة السماوية الشاملة المتسامحة التي يقترحها مبادئ مشتركة تجتمع فيها ملامح ما يسميه «المواطن العالمي» لتكون «دعوة سِلم ومدَنية وإخاء». ويخطو خطوة إضافية على هذا الطريق بالدعوة إلى حوار بين «رجالات الشرائع الثلاث الكبرى ومؤسساتها» بالإضافة إلى «بقية الأديان والفلسفات الأخرى ... من أجل العبور إلى عالم يسوده السلام والخير والعدل»؛ صارفًا النظر عما بينها من تناقضات يصعب التغلُّب عليها في حوار ديني عقيدي؛ بل إن تفكيرَه المنفتح وتفاؤلَه الكبير يصلان به إلى القول: «آن الوقت للإجماع على مدونة دينية واحدة ذات صبغة عالمية، تؤمن بالتنوع ولا تنفي الخصوصية، تحترم المسلمات الكبرى ولا تناقض المبادئ العامة لأي دين بما في ذلك الأديان الأرضية، تمثِّل . هذه المدوَّنة . مرجعية كبرى للأسرة الكونية الواحدة». ولا يمانع بغرض التربية أن يتم اختيار نصوص دينية محددة «تعزِّز من ثقافة السلام وقيم المحبة بين الناس»، و«تؤسس وعيا ثقافيا إنسانيا شاملا.

ومما له علاقة بهذه المدوَّنة في مجال التربية دعوته إلى «وضع المحددات الرئيسية لعملية تربوية وتعليمية كونية تنطلق من المشترك الإنساني ... اتساقا مع المتغيرات الجديدة ومقتضيات العيش المشترك على الكوكب الواحد»، بهدف استبعاد الأفكار المبثوثة في مناهج التربية على نحو ينشر مشاعرَ الكراهية ويركِّز على التناقضات ويخلق بيئة مواتية للعنف.

وعند مناقشة قضايا الإرهاب الذي ينشر القتل وسفك الدماء والتدمير والاعتداء والعنف ويلغي أية وظيفة للشريعة وللدساتير والقوانين والأعراف ويعطِّل الالتزامات الأخلاقية الإنسانية «بحماية الدماء والأموال والأعراض»، يجعل معالجة هذا السرطان الذي ينخر جسد المجتمع الإنساني مرتبطة بصناعة «المواطن العالمي»، وهي مهمة يوكلها بكثير من التفاؤل إلى «المجتمع الدولي» بمنظماته وهيئاته الدولية، وبالأنظمة السياسية الإقليمية والقُطرِيَّة، التي ينبغي أن تعمل للحد من الإرهاب. بل إن التفاؤل يصل أقصاه حين يربط هذه المهمة بإقامة «أنظمة حكم رشيدة تعيد للمواطن بصيصًا من الأمل، ليكف عن الانتحار وصناعة الإرهاب». ويكاد يُحذِّر الجميع من استفحال خطر الإرهاب إذا لم تتحقق هذه الشروط قائلا: «ولا استقرار اليوم لأي دولة في العالم ... ما لم تسهم في صناعة هذا المواطن الصالح الذي يؤثّر محليا ودوليا». وهذه دعوة تحمل الكثير من النيات الحسنة، لكنها تبدو عمليا بعيدة المنال، على الأقل في المدى المنظور، في ظروف الواقع الحالي الذي يكاد «المجتمع الدولي» فيه يقتصر على الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن التابع للأمم المتحِدة، بما بين هذه الدول من تناقض مصالح وعدم اتفاق، بالإضافة إلى تراجع الأيديولوجيات الجامعة والدعوات العالمية والقُطرِية إلى التغيير والتطوير، وصعوبات التوافق بين مكونات المجتمعات في منطقتنا على عقد اجتماعي يضمن حقوق الجميع ويحقق مشاركتهم في بناء أنظمة سياسية ديمقراطية.

يطوفُ بنا الكاتبُ في آفاق المعرفة الشائعة والمتاحة حول الأديان والمذاهب والفلسفات المختلفة، ويقترب من هذه المعارف المتعددة

والمتناقضة أحيانا، بعقلية منفتحة وبعقيدة راسخة بأن «دعوة السماء واحدة منذ الأزل»، وأن «الإله واحد، والأصل البشري واحد، والكوكب الذي نعيش عليه واحد، والمآل واحد، إذنْ فلتكن الأخلاق واحدة، وليكن الخير واحدا والعيش واحدا». ويدعم ما يدعو إليه بأقوال من الديانات الموحِّدة و«الأرضية» ومن القوانين الطبيعية والتجريبية.

لكنه لا يبتعد عن عقيدته الأصلية وعن تكوينه الثقافي الأساسي؛ لأنه في حين يعترف بقواعد أخلاقية مشتركة بين الجميع لا يسمح لهذا الانفتاح على الديانات والفلسفات بأن تبتعد به عن عقيدته التي يلخصها بقول الله تعالى «إن الدين عند الله الإسلام».

ولعل ما يلفت الانتباه أنَّ الكاتبَ يكاد يكون من القلائل الذي امتلكوا الجرأة على انتقاد «ثورات الربيع العربي»، لأنها كانت، في رأيه، «تغييرا» وليس «تغيُّرا»، ويعرِّف التغيير بأنه ذلك الذي يَحدُث بمؤثرات قسرية من خارج الأنظمة السياسية، في حين يُعرِّف «التغيُّر» بأنه ذلك الذي يَحدُث، على العكس، باعتباره ثمرة طبيعية «لعوامل داخلية في بنية الحركة والحدث، بفعل التطور الطبيعي للمجتمع، يفرزه التراكم الكمي». ويقتبس بهذا التحليل من المادية الجدلية الماركسية ما تسميه قانون التراكم الكمي الذي يؤدي في لحظة معينه إلى التغيُّر النوعي، مثلما تؤدي زيادة درجة الحرارة إلى تحول الماء إلى بخار (تتراكم الحرارة حتى تبلغ الدرجة التي يتحول عندها الماء من الحالة السائلة إلى الحالة الغازية).

يُعَدُّ هذا التحليل نقدا مباشرا للثورات العربية لأنها في رأيه لم تعمل بما فيه الكفاية لإنضاج الظروف الموضوعية لقيام الثورات وحدوث «التغيُّر»

المرتجى، بل حاولت فرض التغيير من خارج آليات تطور المجتمع وقابلياته للتحول. وبالنظر إلى ما نتج عن هذه «الثورات» من إخفاقات كبيرة، لم يصل الكثيرون ممن نشطوا فيها إلى الاعتراف بالحقائق القاسية والاعتذار للجمهور الذي استمع إليهم وساندهم حتى خسر الكثير، والبعض خسروا أوطانهم. فليس من المعقول أن يتحمل الجمهور مسئولية هذا الإخفاق؛ بل تقع المسئولية الأولى على النخب السياسية والثقافية التي تولت التبشير والترويج والقيادة، بصرف النظر عن النيات الحسنة. وهذا موضوع تناوله المؤلف بشكل عرضي، ولكنه تناولٌ نادر ينبغي أن يتواصلَ ويؤدي إلى حوارٍ مسئول يعترف فيه كل طرف بمسئوليته على طريق البحث عن مشتركاتٍ وطنية قائمة على التوافق بين مكونات المجتمع السياسية والاجتماعية والثقافية، وهو توافقٌ ينبغي أن يقوم على عقد اجتماعي يرعى مصالح الوطن والمواطنين، ويوفر الأرضية الصالحة لبناء ما تدمَّر خلال العقد الماضي في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، واستعادة المبادرة للانطلاق من جديد على طريق المستقبل.

استهلال

ونحن على مشارف انتهاء الربع الأول من القرن الواحد والعشرين، لنا أن نتساءل: هل لا يزالُ مصطلحُ أو مفهوم «العالم الافتراضي» افتراضيًا بالفعل؟ أم تحولَ الافتراضيُّ إلى واقعي، وربما أضحى الواقعيُّ ضربًا من التاريخِ نتحدثُ عنه، أو هو في طريقه لذلك؟!

سؤالٌ آخر.. قبل عشرين عامًا.. هل كان يخطرُ ببالنا جميعًا أنَّ التكنولوجيا ستنقلنا هذه النقلة كلها اليوم؟!!

وعكس السُّؤال: بعد عشرين عامًا.. ترى ما الذي تخبئُه لنا المفاجآت؟!!

الواقع أنَّ التكنولوجيا اليوم استهلكتنا أكثر مما نستهلكها نحن، وأحصت علينا أنفاسَنا، حتى لكأنها رقيبٌ وعتيد..!

قرّبت البعيدَ؛ لكنها بالمقابل أبعدت القريب، فلم تعد حميميّة الأسرة والعائلة والصداقة كما كانت سابقًا.

يجتمعُ الأصدقاءُ في جلساتهم؛ لكنَّ كلَّ صديقٍ يحضرُ مع كل أصدقائه عبر جهازه الذكي، لتتلاقى أجسادٌ بلا أرواح..!

من القرويّة، إلى القُطْريّة، إلى الكونيّة.. عالمٌ يتشكلُ اليوم، ومعه تتشكلُ ثقافةٌ مغايرةٌ، وسلوكياتٌ جديدةٌ، تنتمي إلى جفافِ الآلة، بعيدةً عن نضَارةِ الروح، في اتجاهٍ إجباري، له تبعاته السلبيّة مستقبلا.

المواطنُ الكونيُّ هو قدرُ المستقبلِ الذي تتشكلُ ملامحُه الأوليّة اليومَ، لا محالة؛ وهو نهايةُ التاريخِ؛ إنما هل تساوت شروطُ هذه المواطنةِ الجديدةِ في

الحُقوق والواجبات؟ أو قل: تقاربت حقوقُها وواجباتُها، وإن في الحد الأدنى؟! بالتأكيد: لا.

إذن ما الحلُّ؟ وكيف يصنعُ عقلاء البشريةِ مواطنًا كوكبيًا جديدًا بشروطِ العصر؟

هذا ما تحاولُ الصفحاتُ التالية الإجابة عنه..

د. ثابت الأحمدي

الرياض 31 ديسمبر 2020م

الفصل الأول

الديـن والإنسان.. مسيـرة حياة

الدين.. الهوية الجامعة

مدخل

بصرفِ النّظرِ عن فلسفة نُشوء الأديانِ لأول وهلة، وكيف تعاملَ معها الإنسانُ منذ اللحظة الأولى، وبصرفِ النّظر عن المفاهيم الإجرائية التي تناولها الفلاسفةُ والمفكرون عن الدين وتبلوُره، والتي ليست مقصودةً لذاتها هنا، ولا تعنينا في شيء، فالأديانُ اليوم إلى جانب كونها مرجعية روحيّة، فإنها أيضا مرجعيّة تشريعيّة لملايين البشرِ في مختلفِ أرجاءِ المعمورة، ويصعبُ؛ بل يستحيلُ تجاوزها بأي صورةٍ من الصُّور، وستبقى حاضرةً في تفاصيلِ الإنسانِ الخاصّة والعامة، شاء ذلك أم أبَى، بمن في ذلك الملحدون أنفسُهم في المجتمعات الدينية، اليهودية والمسيحيّة والإسلاميّة، فإنهم محكومون بقوانين وتشريعاتٍ لها ارتباطاتُها الدينية المتفاوتة، وهم كذلك واقعون في أسرِ العاداتِ والتصوراتِ الدينيّة الاجتماعيّة المرتبطةِ بالأديان، ولا يستطيعون المروقَ منها مهما حاولوا أو دعوا إلى ذلك. الكنائسُ والمساجدُ والمعابدُ تملأ المدنَ التي تدعي أنها غير دينية.. الصُّلبان معلقةٌ في سلاسلَ على صُدور الشباب.. الكتاب المقدس في كل منزل تقريبًا، وفي كل مكتبة.. اللوحات الدينية تتصدر الواجهات. رؤساء الدول التي تدعي أنها علمانية يقسمون اليمينَ على الكتاب المقدس. هذه في مجملها تعكس حالة من اللاوعي الديني المتشكل في الوجدان الجمعي، وفي الثقافة العامة، فقط تختلف نسبة التدين من مجتمع إلى آخر، كما تختلف أيضا في الكيفية.

الدينُ إذن ـ أي دين ـ أحدُ الموجّهات العَامة للإنسان، وراسمُ تصوراته الأوليّة عن الكونِ والحياةِ والوجود، بما في ذلك الأديانُ الأرضيّة، وجميعُها تصبغُ شخصيّات أصحابها بصبغتها الخاصّة منذ بداية وعيهم في الحياة. هذا أمرٌ واقعٌ له امتداداته التاريخية، واعتمالاته الحاليّة، وله آفاقُه المستقبليّة أيضا، حتى في المجتمعاتِ الأقل تدينًا أو الأقل ارتباطا بالأديانِ عبر تاريخها؛ علما أنه يندرُ أن نجدَ مجتمعاتٍ بلا دين، وإن كانت بلا حضَارات، بصرف النظر عن ماهية هذا الدين. كما هو الشّأن أيضا مع الفنون؛ إذ يستحيلُ أن تجدَ مجتمعًا بلا فنونٍ متوارثة. وفي فلسفات كثيرٍ من دساتيرِ الدول وقوانينها نجدُ الأديانَ أحدَ موجهاتها الرئيسية؛ بل روافدها ومنابعها. وقد قال الباحثون والمؤرخون: «لقد وُجدَت في التاريخ مدنٌ بلا قصور ولا مصانع ولا حصون، ولكن لم توجَد في التاريخِ مدنٌ بلا معابد».

نحنُ إذن أمامَ قوالبَ ثقافيةٍ جاهزةٍ ومتوارثةٍ بصورةٍ لا فكاك منها لدى الجميع، وعند مختلفِ شُعوب المعمورة، تحملُ من الإيجابيّات بقدر ما تنطوي عليه من السّلبيات أحيانا. واقعٌ له معطياته التاريخية المرتبطة به، وله مبرراته الخاصة، ما صحّ منها وما لم يصح، ويجب أن يتغير من الآن وصاعدا؛ لئلا نستجر معنا بعضَ تهويمات الماضي وخرافاته التي تُعتبر عيبًا عصريًا وحضاريًا اليوم. نشيرُ هنا إلى الخرافةِ كمعطىً بشري التصقت بالدين حتى صارت جزءًا منه لدى البعض، وتقبلتْها الفُهُومُ بالقبول بلا تمحيص، لا لسلامتها العقلية، فأثرُ الزيفِ فيها واضحٌ، ولكن لأنها التصقت بالمقدسِ الذي لا يجوزُ المساسُ به بطبيعةِ الحال.

لقد بدأ التدينُ ساذجًا بدائيًا في مراحله الأولى على صعيد الفكر

والممارسة معًا، من تدينٍ وثنيٍ أرضي، إلى كوكبي سماوي، ثم إلى إلهي توحيدي خالص، متخلقًا من طورٍ إلى طورٍ، حتى كان بهذه الصورة، يشوبه الشركُ تارة، ثم النقاء تارة أخرى، ولم تكن بروز ظاهرة المصلحين بين فترة وأخرى إلا لتصحيحِ ما علق بالأديان من شوائب أو داخلها من أخلاط. وتقتضي الإشارةُ هنا إلى أنّ التدينَ في مرحلتيه الأوليين: البدائي والكوكبي لم يكن بعيدًا عن التوحيد الإلهي؛ إذ لم يكونوا يقدسون الأوثان والمعبودات إلا لأنها ترمز ـ حد اعتقادهم ـ لقوة غيبية كبرى، لم يستكنهوا حقيقتها وماهيّتها، وحين ترقّى العقلُ البشريُّ تركهما معًا، معتقدًا إلهًا واحدًا لا شريكَ له. وفي قصة إبراهيم أبي الأنبياء ما يشيرُ إلى هذه الحقيقة التي تنقّلَ الإنسانُ إليها من طورٍ إلى طورٍ حتى أدركها بالحدسِ التراكمي.

حاجة الإنسان للدين

اعتقدَ الإنسانُ من وقتٍ مبكرٍ أن ثمة قوةً غيبية تحرسُه وترعاه، ولولا هذه القوةُ الخفية لما استطاع البقاء على قيدِ الحياة ومواجهة صعابها ومشاكلها؛ لذا قدّس ـ في مرحلته المبكرة ـ المرتفعات والجبال والشواهق التي ترمز للمنعة والاحتماء، واتخذ من الطيور الجوارح رمزا للقوة والخلود، لاتصافها بالقوة كالنسر والأفعى والأسد، وكذا النار والشمس والقمر والنجوم في المرحلة الثانية، وغير هذه الرموز التي تختزلُ القوةَ القاهرةَ في الحياة. إنها غريزة النفس البشرية الكامنة في أعمق أعماق الإنسان، والمتطلعة لمعرفة ما وراء الحجب والأستار، متجاوزة الواقع المادي المحسوس إلى الماوراء، للوصول إلى الحقيقة الأزلية الكاملة، حتى الألعاب الأولمبية التي نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد قائمة في جزء منها على أساس ديني؛ حيث تروي الأخبار أنّ الألعابَ الأولمبية بدأت طقوسًا واحتفالاتٍ دينية تخللتها ألعابٌ ومنازلاتٌ تخليدًا للإله الأسطوري «زيوس» الذي سيطر على الكون بعد قهر والده كرونوس Cronos أو ساتورن إله الزمان. وقصة أخرى تروي أن بيلوبس Pelops حفيد زيوس أقام ألعابًا واحتفالاتٍ دينية على أرض أولمبيا المقدسة في دولة مدينة «إيليس» بعد أن صار حاكمها في عام 884 ق.م، مع الإشارة إلى أن الاحتفالات الدينية وتمجيد الآلهة وتقديم القرابين، كانت الطابع المميز لهذه الألعاب. وكانت الألعاب الأولمبية تجري لمدة سبعة أيام، يُخصص اليومُ الأولُ بكامله لأداء الطقوس الدينية أمام تمثال سيد

الآلهة زيوس، وكانت النساء ينشدن الألحان الجنائزية في مقاطعة إيليس في مكان يبعد نحو 30 كيلو مترا عن مكان الاحتفال، ويطفن حول قبر آخيل Achille الوهمي، وعند غروب الشمس تُسكب الدماء على قبر بيلوبس ملك المقاطعة، لإحياء ذكرى مولد الألعاب والاحتفالات الدينية. ويؤدي المتسابقون في هذا اليوم القسم بأنهم من الرجال الأحرار ومن أصل يوناني عريق، وأن أحدهم لم يقترف في حياته أي جريمة، ولم يدنّس المقدسات ولا الدين. كما تُتلى على المتسابقين التعليمات الخاصة بالألعاب وقوانينها تحت طائلة الحرمان منها في المستقبل في حال عدم التقيد بها، في اليوم الثاني إلى السادس تجري جميع الأنشطة الرياضية؛ أما في اليوم السابع فيقدم جميع أفراد الشعب الشكر للآلهة.

ليس الألعاب الأولمبية فحسب؛ بل إن الملحمة اليونانية الكبرى والأم لكل الملاحم الغربية «الإلياذة والأوديسا» قائمة على أساس ديني، تحكي تاريخ الآلهة اليونانية وخلقهم للعالم والإنسان، إلى جانب حكايتها عن أبطال اليونان وتاريخهم.

وعودة إلى جزئية الضعف الإنساني والقوة، فقد جاء هذا الاعتقادُ بالقوةِ التي تحرسُ الإنسانَ من منطلقِ الشُّعور بالخوفِ والعجزِ تجاهَ غوائلِ الطبيعة وجائحاتها التي تهدده على الدوام، فلجأ إلى السّماء مستغيثا بها ومستنجدا.

وزاد الاتصالُ النفسي بين النفس الإنسانية التي تشعر بهذا الضعفِ والعجز وهذه القوة السّماوية القاهرة العصية على التكييف، والتي آمن الإنسان بها إيمانا مطلقا من كل جوارحه ورفع رأسه إلى السماء مع كل

مصيبة تداهمه أو معضلة تواجهه. وفي هذه النزعة الروحية يجدُ الإنسان ذاتَه وروحَه، في صورةٍ من صُور التذلل الإرادي بكل رضًا واختيار، خلافا للمادي الذي ينكسُ رأسه إلى الأرض تبعًا لحسابات الأرض وماديتها إذا ما وقع في المأزق، وشتان بين عبودية السماء وعبودية الأرض. عبودية السّماء تتفتحُ معها آفاقَ الروح، وتشرق معها شموس النفس، وتزهر بها جنبات القلب، فيما عبودية الأرض ـ بماديتها المتوحشة ـ تمسخ روح الإنسان وتحيله إلى كائنٍ متوحشٍ وإن تبدى متأنقًا متزينًا. وفي الصوفية من هذه الإشراقات والتجليات ما يقررُ صحة هذا، كما سنرى لاحقًا ببعض التفصيل. وبحسب هيجل: الإله ليس الإحساس الأسمى؛ بل الفكرة الأسمى والمطلقة؛ أما عند جان جاك روسو فهو ذلك الشعور القلبي الفيّاض الذي تمتلئ به جنبات النفس. وعند الفيلسوف الإنجليزي الشهير هوايتهد: الله هو قيمة العالم ومعناه، ويختصر أوغسطين الفكرة بالقول: إن الحبَّ هو الله. وليس صحيحا في شيء القول أن الدين مرحلة من مراحل تطور الوعي البشري، سيغادرها يوما ما، ذلك لأن للروح مطالبها الخاصة، كما للجسد مطالبه الخاصة، ولا تكمن حاجة الروح إلا في الدين.

الفلسفة والدين

في الوقت الذي يرى البعض أن لكل من: الدين والفلسفة مساره الخاص به، وأن كلا منهما نقيضٌ للآخر يرى هيجل عكس ذلك بقوله: والوهم الأكثر غباء في عصرنا هو الظن أن الفكر مضرٌ بالدين، وأن الدين يكون أكثر ثباتا بقدر ما نتخلى عن الفكر، ومن ثم فالعلة في وقوع سوء الفهم هذا هو أن صاحبه يجهل من الأساس العلاقة الروحية السامية ويسيء معرفتها. أ. هـ

يُنسب لسقراط: كما يشعرُ الإنسانُ بحاجته الماسّة إلى الهواء والماء والطعام تشعرُ روحُه أنها في حاجةٍ مبرمةٍ أيضًا إلى غذاءٍ معنويٍ إلهي، وهذا الشُّعورُ هو ـ في عُرفنا ـ الدينُ الذي اهتدى إليه أولُ إنسان.

ويقول آرنولد توينبي: إن الارتقاء الروحاني للنفوس البشرية في هذه الحياة يحملُ معه حقًا تقدمًا اجتماعيا أعظم بكثير مما يتهيأ تحقيقه باستخدام طريقة أخرى. مؤكدا على أن الأديان هي المنافذ المختلفة التي منها ينفذ شعاع الله المضيء إلى نفس الإنسان.

أيضا يقول هيجل: في الدين يكون الإنسانُ حُرًا أمامَ الله؛ حيث إنه يبرزُ إرادته في تطابق مع الإرادة الإلهية. إنه ليس في تعارض مع الإرادة الأعلى؛ بل يتملك نفسه فيها.

ويقررُ هانس كينج أنَّ التدينَ بُعدٌ عميق للإنسانِ وبِنية عميقة للإنسانية، وهو موجودٌ ببساطة، شئنا أم لم نشأ، مثلُه مثلُ الموسيقى أو الفن أو القانون.

ولم يذهب عنه كثيرًا هوايتهد الذي يرى الدين نظاما أو مجموعة من الحقائق العامة، التي تؤدي إلى تغيير في الأخلاق والسلوك إذا أخذت على محمل الجد، فالدين هو قوة الإيمان الذي يصفي الدواخل، وبسبب ذلك صارت الاستقامة هي رأس الفضائل الدينية، وهي استقامة داخلية عميقة، وإن طبيعتنا وأخلاقنا تتطور بحسب تطور إيماننا. حتى المفكر الإسلامي محمد إقبال الذي يرى في الدين ميدانا للرياضة الروحية، وتفسير التجارب الإنسانية، باعتباره الحقيقة المطلقة، عكس الفلسفات مثلا التي هي مجرد نظرياتٍ عابرةٍ، يصحُّ منها ما يصح، ويخطئُ ما يخطئ. وإقبال في فلسفته للدين يتناولها من منظوره الشَّامل لمجمل المحاور الأساسية التي تناولها الدين، وقد استقرأ فلسفات الفِرقِ الإسلاميّة من أهل الحديث والمعتزلة والأشاعرة والفلاسفة وغيرهم.

وبهذا الإشراقِ وتجليات الروحِ يكونُ الدينُ ـ أي دين ـ ضمانةً كبرى في سلامةِ الأروح وصفاء النفوسِ التي تفضي حتمًا لسلامةِ التصرفاتِ وصحة السلوك، سواء على الصعيد الفردي أم الجمعي. وهذا هو مقتضى العيشِ المشترك؛ بل ومقتضى الوجود الإنساني من أساسه.

الحروب والدين

لقد حافظت الجماعاتُ على بقائها وكينونتها بالأديان في كل مرحلة من مراحل الاضطهاد السياسي، وشكّلَ الدينُ في حد ذاته قوة معنوية دافعة في التجلد والصبر والاحتساب أمام آلات البطش والاضطهاد التي لاقتها الجماعات المتدينة من الطغاة السياسيين، أو حتى مع بعضها بعضا، كما هو الحال مع يهود بابل الذين اضطهدهم الملك الآشوري سنحاريب ثم نبوخذ نصر في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، ونفاهم إلى بابل حتى أعادهم الملك الفارسي قورش، وهناك كتبَ اليهودُ أحرّ أشعارهم وتاريخهم، كما كتبوا تلمودهم الرسمي المعروف بالتلمود البابلي، والذي تشكلت على ضوئه الشخصيّة اليهودية إلى اليوم. ووسط ذلك التعذيب والنفي والتشرد الذي حصل لهم لم كانت صلواتهم وأدعيتهم الدينية هي الملجأ الروحي الأول الذي استمدوا منه حياة البقاء؛ علما أنهم قاوموا الاضطهاد الروماني في البداية، وظهرت فيه جماعة عنف عرفت بالمخنجرين، لاعتمادهم على الخنجر في اغتيال جنود وموظفي الدولة الرومانية؛ بل لقد قتلوا من رأوهم خونة من أبناء جلدتهم اليهود الذي اتهموهم بالتمالؤ مع السلطات الرومانية.

ذات الشأن أيضا مع المسيحية التي اضطهدتها الدولة الرومانية في بلاد الشام، ونكلت بهم، لما يقارب ثلاثة قرون من الزمن، حتى انتهى هذا الحال بمرسوم ميلانو سنة 313م، فسُمح للكنيسة بممارسة طقوسها الدينية، إبان حكم قسطنطين الأول، ولولا وصايا يسوع وتعاليمه في الصبر والتحمل

مشفوعة بالأدعية اللاهوتية لما تحملت الجماعة المسيحية ما حل بها من النكال والدمار. ومثل هذا التنكيل أيضا مسيحية نجران وما عانوه على يد ذي نواس الحميري، وفيهم نزلت سورةُ الأخدود من القرآن الكريم.

وذات الشأن مع المسلمين واليهود أيضا الذين اضطهدتهم المسيحيّةُ بعد ذلك فيما عرف بفترة القرون الوسطى في الأندلس حين مارست عليهما أبشع أنواع التعذيب الذي ورثته في أدبيّاتها التاريخية عن آبائهم الذين تعرضوا للتعذيب على يد الرومان، على الرغم من فضل المسلمين على المسيحيين في تمدينهم؛ بل ونقلهم من حياة الهمجية المتوحشة التي كانوا يعيشونها آنذاك إلى المدنية الراقية. ثم ما حصل بعد ذلك من توحشٍ تجاه المسلمين العرب، فيما عرف بالحروب الصليبية التي قادها بابوات أوروبا تحت شعار الحج المسلح..! بل لقد التفتت المسيحية بعد مؤتمر نيقية إلى من تبقى على وثنيته في الإمبراطورية الرومانية وثأرت منهم للأبناء والرسل الذين أعدمتهم الإمبراطورية بالأمس.

والحقيقة أنه ليس أسوأ من أن يتحول المظلومُ إلى ظالم، فإنه يمارسُ الوحشية المتطرفة بنفسية منحرفة متأزمة، تنعكسُ سلوكا انتقاميًا حد الجنون؛ خاصّة إذا ما كانت المعتقدات راسخة في الوجدان؛ لأن أسوأ المظالم تنشأ عن أسوأ المعتقدات كما يذكر جوستاف لوبون في كتابه «روح الثورات». وقريبا من هذا أيضا قال به «إيريك هوفر» في كتابه «المؤمن الصادق» وما العنفُ في هذه الحالة إلا انفجارٌ جماعي تمارسه الجماعات المكبوتة تجاه غيرها، تحت غطاء الدين، برعاية سياسية في الغالب.

ونفس الحال أيضا مع مسلمي الصين وبوذيي الهند الذين تعرضوا

لوحشيات متطرفة من قبل الجماعات الدينية الكبرى هناك، إلى حد اعتبار البعض البوذيةَ عقيدةَ الدفاع عن الذات. ثم إن ما عُرف بلاهوت التحرير منتصف القرن الماضي ليس إلا أحد أوجه العلاقة بين الدين ومقاومة الفناء.

ظُلم اليهودُ كثيرًا على يد الرومان، وظُلم المسيحيون أكثر على يد اليهود، وظُلم المسلمون أضعاف ذلك من قِبل المسيحيين، ويظلم المسلمون أنفسَهم فيما بينهم البين بواسطة فرقهم ومذاهبهم. وهكذا تتوالى سلسلةُ العنف، وكلٌ يمارسُ الظلم على غيره إذا ما امتلك القوة، في متوالية تاريخية لا تنتهي. والعجيب أن الحروب البينية أشد ضراوة من غيرها لدى كل الشرائع والمذاهب، ووفقا لجوستاف لوبون: إن عدم التسامح بين أنصار المعتقدات المتقاربة يكون أشد مما بين المعتقدات المتباعدة.

لقد كانت الأديانُ المحركَ الأساس والدافع الأكبر لمعظم حروب التاريخ الكبرى، متراوحة بين الغاية في حد ذاتها أحيانا، وبين الوسيلة أحيانا أخرى، سواء الحروب الغيرية أم البينية، ومن يستقرئ حروب الشيعة والسنة في الدين الإسلامي أو حروب الكاثوليك والبروتستانت في المسيحية، أو حتى الحرب المسيحية الإسلامية أو المسيحية اليهودية أو اليهودية الإسلامية يجد أنهارًا من الدماء وتلالا من الجماجم لم تتوقف منذ مئات السنين وإلى اليوم، حتى الفرعون الأكبر نفسه حين استجاشَ قومَه ضد موسى كانت غايته دينية ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾. هذه الآلة التي تدمر وتبيد، بإمكان العقلاء أن يجعلوها آلة بناء وسلام، فنصوصها تحمل بذور الحرب، كما تحمل بذورَ السلام على حد سواء. ووفقا لهانس

كينج: إنَّ المطالبةَ بنبذ العنفِ موجودةٌ في التقاليد الدينية كافة، من ناحيةٍ أخرى يظهرُ العنفُ في الأديانِ كافة.

اليوم الآخر والدين

تكمنُ أهميّةُ الدين في الإجابة عن سؤال الماهية الأخروية التي تُعتبر أحد مراحلِ حياةِ الإنسان في فلسفة وفكر أي متدين، وهو السؤال الذي عجزت عن إجابته الماديات؛ بل وعملت على توقيف حياة الإنسان بصورة نهائية عند الموت، نافية مرحلة ما بعد الموت «الحياة الأخروية»؛ فكان الدينُ إجابة عن المبتدأ والمنتهى، عن نقطتي الانطلاق والوصول، فيما هو في نظر الماديين انطلاق إلى المجهول فقط. وقد أفرد العلامة اليمني محمد بن علي الشوكاني رسالة خاصة بعنوان: المقالة الفاخرة في بيان اتفاق الشرائع على إثبات الدار الآخر. وكتابا آخر يتصل بهذه الفكرة هو اتفاق الثقات على التوحيد والمعاد والنبوات.

هذا المعتقدُ لدى المتدينين سَاهَمَ إلى حدٍ كبيرٍ في ضبط السُّلوك الإنساني وتقويم وجهته، وتقليم أظافر الوحش الذي يسكن أعماقه، خوفًا من عاقبة هذا التوحش، ولو بعد حين. ولهذا رأينا كثيرا من معتنقي النظرية المادي ينهون حياتهم على طريقة الساموراي، وهي خاتمة مرفوضة من كل الأديان السماوية، نهاية تعتبرها الأديان عدوانا على الروح، في أسوأ عملية اعتراض على قدر السماء؛ لأن الروح من أمر الله، وإنهاء الروح بالانتحار اعتراض على أمر الله.

الدينُ ـ إذن، ومن هذا المنطلق ـ آلية من آليات البقاء والحفاظ على الذات، سواء ذات الفرد أم ذات الجماعة، وهو كذلك رافعة حضارية

للبناء، وللسلام العالمي، والعيش المشترك، وفي أفقٍ ما يمثلُ إسهامًا كبيرًا لتجاوزِ المهدداتِ العالميّة التي تشقى بها البشريةُ اليوم على تقدمها التقني والحضاري. ويبقى الرهانُ على كيفية توظيفِ هذه الرافعة والاستفادة منها بالصُّورةِ التي تجب من منطلق: «ولقد كرمنا بني آدم».

الإرهاب والديـن

ينطوي العطف والمعطوف عليه عند اللغويين على معنى من التقارب أو الواحدية بحيث يجمعُ بينهما موضوع ما، فيما الأمرُ عند المناطقة مختلف، إذ يقتضي حرفُ العطف المغايرة. وأنا أتبنى هنا وفي هذه التناولة مفهومَ المناطقة، لا مفهوم اللغويين حين عطفتُ الإرهاب على الأديان. أي أنَّ كلا منهما منفصلٌ في حقيقته عن الآخر، إذا ما استغورنا الحقائق من جميع جوانبها.

يُعرّفُ العنفُ بأنه آلية من آليات الدفاع عن الذات ضد المخاطر التي تواجه الإنسان من أجل البقاء والاستمرار، كغريزة إنسانية كامنة في الإنسان والحيوان على حد سواء، كما يرى البعض.

ويعرف الإرهاب بأنه الطرائق والأساليب التي تنتهجُها جماعة ما ضد شخص أو كيان ما معارض لها، بقصد خلق الرهبة والهلع لدى هذا المعارض، مستندا على منظومة فكرية «أيديولوجية» تبرر هذا السلوك وتشجعه.

وبصرف النظر عن الفارق المعجمي بين المصطلحين، فسنتعامل معهما كمعنى واحد، لتداخلهما «مفاهيميًا» وباعتبار أن العنف مقدمة للإرهاب، وأن الإرهاب ـ في غالبه ـ انعكاسٌ سببي للعنف، ورد فعل مباشر وفقا لمبدأ السببية الدوريّة، ناهيك عن أن العنف من أخلاق البشر وفقا للنظرية الخلدونية، وبحسب الشاعر العربي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لم يظلم

وقبل هذا يقرر المبدأ القرآني: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾.

الإرهاب المعاصر

على أية حال.. المتتبع لتاريخ نشوء العنف والإرهاب على الأقل من مطلع القرن العشرين يجد أن العنف ارتبط عضويا باليسار منذ نشوء المنظمات العنفية والإرهابية التي تشكلت في روسيا القيصرية قبل اندلاع الثورة البلشفية، لإسقاط حكم القيصر، قبل أن تنتقل عدواه إلى اليمين منذ مطلع الخمسينيات فما بعدها؛ حيث تشكلت مجاميع عنقودية إرهابية بقصد إسقاط نظام الحكم الإقطاعي آنذاك، فقامت المجموعة الثورية الاشتراكية باغتيال وزير الداخلية الروسي «سباياجين» عام 1902م؛ بل لقد كان أول هجوم انتحاري عام 1878م قبل ذلك ضد رئيس وزراء روسيا من قبل عنصر يساري متطرف، وكانت أول شحنة ديناميت وضعت في طائرة روسية عام 1907م، وأول انفجار لسيارة مفخخة كان في «وول ستريت» بنيويورك عام1920م، وفي إيرلندا مارست حركة التحرر الإيرلندية أعمالا إرهابية ما يزيد عن عشرين سنة كاملة ضد بريطانيا بسبب سيطرة الأخيرة على إيرلندا، علما أن هذه الحركة قد قامت بتفجير قنبلة فجرها عنصر إرهابي إيرلندي في أحد شوارع لندن عام 1883م، كما يذهب إلى ذلك الباحث العراقي في شؤون الجماعات الإرهابية إبراهيم الحيدري، وفي تركيا «العثمانية» تشكلت مجاميع إرهابية مارست العنف والإرهاب باسم القضية الأرمينية التي لا تزال حتى اليوم كابوسا للنظام التركي الجديد، كونها قضية قديمة/ جديدة، تعتمد على رصيد من العنف مارسته منذ ما يزيد عن مئة سنة؛ وتستغله جهات ما أيضا اليوم؛ أما ما عرف بعنف الدولة أو إرهاب الدولة فقد مارسته كل من فرنسا عقب ثورة الباستيل،

كما مارسه الثوار البلاشفة في روسيا في أبشع صورة، حتى بدا إرهابا متحولا من إرهاب الجماعة إلى إرهاب الدولة.

وفي الوقت الذي انقرضت فيه بعض المنظمات الإرهابية اليسارية التي نشأت في النصف الأول من القرن العشرين استمر نشوء بعضها وتناسلها، منفذا الأعمال الإرهابية سواء ضد المجتمع أم ضد الدولة، كمنظمة الجيش الأحمر اليابانية التي تأسست مطلع سبعينيات القرن الماضي، ونفذت سلسلة أعمال إرهابية داخل اليابان وخارجه. وأيضا منظمة الخلايا الثورة الألمانية «RZ» وهي منظمة يسارية تأسست بداية سبعينيات القرن الماضي في ألمانيا الغربية، وكانت واحدة من أخطر المنظمات الإرهابية هناك، كما صنفتْها وزارة الداخلية الألمانية.

وظل القائد الثوري ارنستو تشي جيفارا ـ وهو يساري عتيد ـ محل إعجاب الشباب الأوروبي؛ بل والعربي منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي وإلى اليوم، على الرغم من كونه طبيبا في الأصل، تحول بعد ذلك للعمل الثوري العسكري.

لذا لا غرابة أن ينشأ ما عُرف بالمذهب الفوضوي «اللاسلطة» أو «مجتمع اللادولة» والذي يدين ويستهجن أي سلطة سياسية أو اجتماعية تقوم على أساس من النظام والقانون وتنظيم شؤون الناس؛ مؤكدا أن بقاء وتطور الأجناس يعتمدان على المنافسة والمصالح الأنانية الخاصة، كما يرى هيربرت سبنسر.

الرأسمالية والإرهاب

وبقليل من التأمل ندرك أن تغول الرأسمالية المتوحشة مع ما صاحبها من الهيمنة الإمبريالية قد ساهم في نشوء وبروز مثل هذه الظواهر، سواء ظاهرة اليسار الإرهابي المتطرف أو اليمين الإرهابي المتطرف بعد ذلك الذي كان تاليا لمرحلة اليسار الذي دمغ الإسلاميين في حقبة الأربعينيات والخمسينيات وما بعدهما بتهمة الخنوع والعمالة والاستسلام للغرب؛ خاصة اليساريين القوميين إبان فترة المد الناصري المناوئ بقوة للسياسة البريطانية في المنطقة العربية وعلاقتها بالإسلاميين خلال تلك الحقبة، مع أن بروز ظاهرة الإسلام السياسي لم تتخلق بصورة أوضح إلا منذ مطلع السبعينيات من القرن الماضي، وسطع نجمُها أكثر مع الجهاد الأفغاني خلال عقد الثمانينيات، ثم عقد التسعينيات، وحتى العقدين الأوليين من الألفية الجديدة، صَاحبَه أفولٌ تدريجي لليسار العربي الذي صار اليوم من التاريخ، وإن كان له بعض التواجد، غير أن أحداث سبتمبر 2001م قد مثلت مرحلة فارقة ونقطة فاصلة لما يعرف بالإسلام السياسي، ولا تزال تفاصيل هذا التحول تعتمل حتى اللحظة، علما أن العملية الإرهابية المعروفة في أوكلاهوما قبلها في العام 1995م، وهي أكبر عملية إرهابية حتى ذلك التاريخ لم تكن إسلامية، بل كان منفذوها مسيحيين كاثوليك، وقد ظلت هذه العمليةُ حديثَ الرأي العام، نظرًا لفداحتها، حتى جاءت أحداثُ سبتمبر 2001م، الأكثر فداحة، وكاد الرأي العام أن ينسى أو يتناسى كل ما سبقها من عمليات.

وعلى الرغم من بعض المراجعات الفكرية التي أقدمت عليها بعض

تيارات الإسلام السياسي إلا أنها لا تزال محل شك وارتياب من قبل الدول الكبرى والدول الفاعلة إقليميا أيضا، إذ تنظر الأنظمة السياسية إلى أن هذه الجماعات تمثل الفقاسة الإرهابية مهما ادعت اعتدالها ووسطيتها. مع أن تلك المراجعات تبدو سطحية وطفيفة وتقليدية، وهي مراجعات لا عن اقتناع ذاتي؛ بل عن حسابات خارجية تتعلق بموقف الآخر منها.

والواقع أن ظاهرة الإرهاب «المتحولة» يساريا ويمينيا، غربيا وشرقيا ستظل متنقلة وقائمة ما دام الظلم والاحتكار قائما، ولن تتوارى إلا بسياسة رشيدة من صنع المجتمع الدولي والأنظمة السياسية للدول القائمة، سياسة تعيد الأمل للشباب العربي والإسلامي الذي فقده نهائيا أو يكاد، ذلك أن الإرهاب والعنف والانتحار ظواهر مرتبطة بانعدام الأمل نهائيا، كما قال «جيمس ولفنستون» رئيس البنك الدولي السابق، ويهودي الديانة: «ليس هناك تطرف إسلامي أو مسيحي أو يهودي؛ لكن الأمر متعلق بالأمل، فشباب العالم ـ من أي دين وجنس ولون ـ سوف يكونون متطرفين عندما ينعدم أمامهم الأمل والفرص». وهي مقولة تعكس عمق نظرة الرجل ودقة استغوار واستكناه الحقائق بنظر الفيلسوف الحاذق والمفكر المستنير.

وقد شهد العالم خلال الفترة الممتدة من عام 1970م إلى 2018م ما مجموعه 170 ألف عملية إرهابية، يسارية ويمينية معًا، مثّلَ العام 2014م ذروة النشاط الإرهابي خلال الفترة المذكورة، وذلك بـ: 32 ألفا و685 عملية إرهابية، لجماعة «داعش» وحدها، خلفت وراءها كوارث مروعة في الأشخاص والممتلكات، وأغلبها في منطقة الشرق الأوسط، الموبوءة بالصراعات السياسية والاستبداد والفوضى. هذه العمليات وإن تراجعت خلال الخمس

السنوات الماضية قليلا إلا أنه تراجع مرتبط بتدخلات الساسة، لا بتعقل هذه الجماعات العنفية الإرهابية وقد يزداد مستقبلا.

والخلاصة.. إنّ صناعة «المواطن العالمي» مهمّةُ المجتمع الدولي، بمنظماته وهيئاته الدولية الفاعلة، الرسمية وغير الرسمية، كما هو منوط - أيضا - بالأنظمة السياسية الإقليمية والمحلية التي يجب أن تُسهم في الحد من القضاء على الإرهاب بأنظمة حكم رشيدة، تعيد للمواطن ولو بصيصا من الأمل، ليكف عن الانتحار، وصناعة الإرهاب. ولا استقرار اليوم لأي دولة في العالم - مهما كانت كبيرة، ومهما كانت نائية - ما لم تسهم أيضا في صناعةِ هذا المواطن الصّالح الذي يؤثر محليا، كما يؤثر إقليميا ودوليا على حد سواء، وقد تداخلت مصالح العالم وتشابكت فيما بينها، بفعل التطور التقني والتكنولوجي في مجال الاتصال، الذي تستغله الجماعات الإرهابية مثلما تستغله الدول والهيئات على حد سواء، فالمسؤولية مشتركة وواحدة، في شرق الكرة الأرضية كما هو في غربها.

التدين والدين

من نافلة القولِ الإشَارة إلى الفرق بين الدين بما هو مُعطًى سماوي مقدس، وبما هو حقيقة خارجيّة محددة بمنظومة تعاليم إلهية تكتسي زيَّ المُطلق والكلّي، وبين التدين بما هو اجتهادٌ بشري وممارسة إنسانية تستبطن البعد النفسي والثقافي والاجتماعي المتشكل من مدخلات أخرى أيضا، ويتداخل معها الموضوعي بالذاتي والحقيقة بالخرافة، والصحة بالخطأ والمقدس بالمدنس.. إلخ. هذه ظاهرة دينية في كل الأديان بلا استثناء، ظاهرة بعض الأحبار والرهبان وبعض الفقهاء الذين قدموا تفسيرات خاصة بالدين، بناء على محددات خاصة في أفهامهم، لها خلفياتها النفسية، أو أجندات معينة رسمت لهم سلفا لها خلفياتها السياسية. ومن هنا تحول الدين من عامل بناء إلى عامل هدم، ومن عامل محبة ووفاق إلى عامل كراهية وشقاق.

الدين عامل هدم إذا ما تمت أدلجته أو احتكاره باسم جماعة ما، أو تعصبت له جماعة جاهلة، سرعان ما يتحول إلى فتيل صراع بين طرفين كلٌ يدعي تمثيله وأحقيته به. وباستقراء المجتمعات المتدينة الجاهلة ندرك حجم ذلك الصراع الجنوني «أفغانستان أنموذجًا». الدين إذن انعكاس لوعي المجتمع، ففي المجتمع اليميني المتدين متخلف، واليساري متخلف والتقدمي متخلف، والجميع يتعاطون مع الأفكار من منطلق الوعي الجمعي المسيطر عليهم، وبين يدينا نموذج آخر أيضا، وهو البوذية. البوذي في اليابان ملاك

ينحني لك احتراما وتقديرا، وفي بورما كائن متوحش يقتلُ أخاه الإنسان بكل برودة، وبلا سبب..!

الداعشي المتأزم نفسيًا قبل تأزمه فكريا يفجر نفسه ومن حوله، والصوفي المتهامي عشقا وحبا يغسل أقدام المشردين والتائهين في الشوارع، وكلاهما مسلمان ينهلان من مصدر واحد..!!

التطرف والإرهاب ملة واحدة، وهو موجود في جميع الأديان، وكل فريق من المتطرفين يتغذى من الطرف الآخر، ويبرر تطرفه به، وهو ما يجعل القضاء على التطرف لدى جماعة بعينها مستحيلا، إلا أن يكون لدى الجميع في وقت واحد. إنه يشبه الجائحة الوبائية يبتدئ كليا وينتهي كليا.

توظيف قيم الدين للتحيزات العصبوية أو المصالح الفئوية لا تنتج إلا الكراهية، وبدورها تعمل الكراهية على تدمير أهلها قبل تدمير الآخر، وهذا سلوك مرذول استبشعته كل الأديان على حد سواء. يحيطك المعلم/ المربي بدائرة ما، ثم يقول لك: كن حُرا داخل الدائرة..! وهي حرية تشبه حرية العصفور داخل القفص، أو حرية القطيع داخل الحظيرة الواسعة. وما لم يتجاوز هذا العنصر تلك الدائرة المضروبة حوله سيظل أبد الآبدين يعتقد أنه فكره ومعتقده هو الأصح وحده، وأن الآخرين على الخطأ، كل الخطأ. ومن هنا رأينا كيف تتمدد الأيديولوجيات بالجهل في المجتمعات الجاهلة، وتنكمش في المجتمعات المتعلمة والمثقفة بالوعي والتعليم، وستظل كذلك حتى يتجاوز المجتمع السياجات الوهمية من حوله.

الأيديولوجيات اليسارية أو اليمينية ليست في أحد أوجهها إلا الامتداد التاريخي للأساطير والميثولوجيا، وإن شئت قل: الأساطير المُعقلنة، ذلك

أنها تبيعُ الوهم لأتباعها، بعد أن عطلت فيهم ملكة النقد والتفكير، فسلم الأتباعُ عقولهم لمعلمهم/ قائدهم/ مرشدهم الذي يفكر للجميع بدلا عنهم، فهو المنزه عن الخطأ، وكل ما ينطق به حق وعدل، وآمنوا بالخرافات الزائفة والأفكار الباطلة، ولا يزالُ شعار: «موسوليني دائما على حق» حديث التاريخ؛ حيث كانت هذه العبارة تُكتب على كل الجدران في إيطاليا أثناء حكم الفاشية الموسولينية.

إن خطأ الفنّان لا يعني خطأ الفن كما يُقال، وإن توحش بعض المتدينين أو المحسوبين على الدين لا يعني الدين في شيء. هذا ما ينبغي أن نعيَه في هذا السياق. تكمن المشكلة حين يتم تسييس الدين وصرفه عن وجهته، لينتج في هذه الحالة فكر هجين وخليط لا هو بالسياسي، ولا هو بالديني، ومن ثم تتوالى النكبات السياسية والدينية معا. وشواهد التاريخ مليئة بهذه الصور، بالتزاوج غير المشروع بين رجل الدين والسياسة، كظاهرة قديمة/ جديدة، لن تنتهي.

الحضارات والدين

من يتتبع عملية نشوء الحضارات منذ بواكيرها الأولى، وفي مختلف المجتمعات يجد أنَّ كلا منها لزيمَ عقيدة أو فكرة ما، تتجلى هذه العقيدة أحيانا في شكل ديانة، وأحيانا أخرى في شكل فلسفة ما؛ ذلك أنَّ الأديانَ قرينُ الحضارات وعليها تأسست المجتمعاتُ الحضَاريّة والشُّعوب المتمدنة. وما انفكت حضارةٌ أو نهضة عن عقيدةٍ يوما ما.

يرى فيلسوفُ التاريخ والحضارات آرنولد توينبي أن الحضارة المسيحية بشقيها الغربي والشرقي قد تولدتا عن الحضارة الهيلينية عن طريق العقيدة المسيحية.

وحضارة الشرق الأقصى تولدت عن الحضارة الصينية عن طريق بوذية المهايانا.

والحضارة الهندية تولدت عن الحضارة السندية عن طريق العقيدة الهندوكية.

والحضارتان الإيرانية والعربية تولدتا عن الحضارة السريانية عن طريق الإسلام.

تنفخ الأديانُ في الشُّعوب تعاليمها الخاصة، متمثلة في إحياء قيمٍ جديدة تكلست سابقا، أو لم يكن له وجود أصلا، كخلق الروح الجمعية أو إحيائها، وكقيم الإيثار والتعاون والمحبة واستلهام المجد الغابر أو صناعته، فتتحول الشعوبُ بين عشية وضحاها من جماعات متكلسة متناحرة داخليا إلى

مجتمعات منتظمة ذات مشروعٍ جمعي، تغذيها تعاليم روحية شبّابة تصنع بها المستحيل. وإلى هذا المعنى أشار جوستاف لوبون وهو يتكلمُ عن حماسة رجال الثورة الفرنسية وتضحياتهم فقال: كان لهم حماس لا يعدله إلا حماس ناشري دين محمد.

نعم.. تخلقُ الأديانُ الوعيَ بالذات كوحدة فردية أولية، ثم الوعي الاجتماعي كوحدة تالية لها، ثم الوعي بالأمة كإطار أوسع، ثم الوعي بالوجود كإطار مطلق، شاملٍ الوجود الدنيوي والوجود الأخروي، وذلك على نحوٍ متوازٍ بين هو فردي وما هو جماعي، ومن ثم كانت الأديان عاملا من عوامل التقدم الجمعي للمجتمعات والشعوب التي ترقت إلى وحدة الكلمة بعد كلمة التوحيد.

إنَّ إنجازَ ثلاثمئة سنة عقب دعوة النبي محمد في مختلفِ مجالات الحياة، وعلى الصعيدين المادي والروحي معًا يفوقُ إنجازَ ألف عام قبله، وألف عام بعده، ولا شك أنه إنجاز مبني على قواعد لحضارات قبله في المنطقة كانت متكلسة أو في حكم الموات، فنفخت فيها الدعوة الجديدة الروح، ونهضت كطائر الفينيق، أي تعانقَ رصيد الماضي وروح الحاضر، وتشكلت مسيرة جديدة بفكرة أجد، لترسي دعائم حضارة رقعة واسعة من الأرض. ومن هنا نستطيع القول أن عصور التقدم الديني هي نفسها عصور التقدم العلمي، وأن عصور ازدهار الروح هي نفسها عصور ازدهار العقل، وأن الميتافيزيقا قد توازت ـ على نحو نادر ـ مع المادة في معادلة نادرة بين تاريخ كل الأديان.

لقد انطلق العربُ بالرسالة المحمدية انطلاقة السهم من القوس، في زمن قياسيٍ سريع، وأسسوا حضارةً دانَ لها الشرقُ والغربُ بفعل تلك الجماعة

من «المتوحشين النبلاء» كما سمّاهم البعض، والذين انطبعت فيهم الفطرةُ السماوية بيسر وسهولة، وفي سنوات قليلة على يد المؤسسِ الأول، وكانوا أهل نجدة وشهامة وروح شجاعة وثابة، فتكاملت قوةُ العقيدة كفكرة مع قوة الروح العسكرية، ومن ثم كان ذلك النجاح.

ذات الشّأن أيضًا مع الحضارة الغربية التي جمعت بين روح المسيحية وإرث النورماندية والجرمان والسكسون «المتوحشين النبلاء» أبناء البوادي والسهوب الذين بذروا جينات حضارتهم قبل مئات السنين، وها هي اليوم حضارة تحكم العالم. وقبل هذه الحضارة مرحلة ما بعد مؤتمر نيقية في العام 325م، الذي زاوَجَ بين سلطة البابا وسلطة الامبراطور، فحافظت على بقائها فترة غير قصيرةٍ من الزمنِ حتى فقدت روحها وانتهت في العام 1453م، ذلك أن الإمبراطورية الرومانية قد فقدت روحها الكلية وعقلها الجمعي، بعد أن بلغت الذروة قبل ذلك، فأعمار الحضارات كأعمار الدول، كأعمار البشر، لها بداياتها ونشأتها وشبابها واكتمالها ثم شيخوختها حتى تؤول إلى التلاشي والسقوط؛ لتنهض من ثَم حضارة جديدة تتخلق على أنقاض هذه الحضارة، لها مقوماتها الروحية والمادية، وفي الغالب لا تجتمع حضارتان في زمن واحد، عدا ما قد يكون من الحضارة الصينية أو الهندية اللتين تنشآن دائما على الهامش مفصولتين عن حضارة الشرق أو الغرب.

الأمر لا يبتعد هنا عن قوانين الجدل الهيجلي، وخاصّة قانون: «التراكم الكمي يفضي إلى التحول النوعي»، أو ما سماه ماركس الديالكتيك، غير أن ماركس ربط نشوء الحضارة واكتمالها باكتمال الشروط المادية فقط، تاركا الشروط الروحية إلى جانبها التي تتكامل معها. فالنهضة، ومن ثم الحضارة

روحٌ جمعيّة تحركها الفكرة ويسير بها الهدف، لا مجرد غرائز فردية مبنية على قيم المادة فقط. فمثلا بلال بن أبي رباح هو ذاته بشحمه ولحمه وعذاباته وآلامه وغرائزه قبل محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك العبد الخانع المستسلم الصابر، والذي يفتقد للفكرة، وحين وجدت الفكرة/ الروح الجديدة/ العقيدة المستجدة/ انبرى وكأنه مفصولٌ عن شخصية الأمس، ثائرًا عنيدًا متمردًا ضد الظلم، مع أن الظلم يعيشه من سنوات طويلة؛ لكنه كان يفتقد للفكرة الدافعة التي حركت فيه روحَ التمرد والثورية. إذن الاكتمال هنا من شقين: مادي، وروحي معا. وليس ماديا فقط كما يرى ماركس.

إنّ الروحَ الجديدة ـ بما هي فكرة وعقيدة ـ جعلته يقبلُ التضحية بالنفس نهائيًا على أن يعيشَ عيشة الظلم، فلديه الاستعداد التام للموت من أجل الفكرة الجديدة، وليس لديه أدنى الاستعداد لتحمل المهانة السابقة مع ضمان سلامته وعيشته لدى سيده. آمن بالفكرة الجديدة في سنواتها الأولى كما هي، وإن لم يعرف حقيقتها بعد، ووفقا لإيرك هوفر في المؤمن الصادق: ليس من الضروري لكي تصبح العقيدةُ فاعلة أن يفهمها المرء، ولكن من الضروري أن يؤمن بها. وفي ألمانيا النازية آمن النازيون بفكرة الفوهرر التي أتى بها إيمانا أعمى بدون معرفتها، رغم أن الشعب الألماني من أذكى شعوب الأرض، إلى حد أن هيجل قد اعتقد أنهم أول الأمم التي تصل إلى الوعي بأن الإنسان بما هو إنسان حر، وأنّ الروحَ الألمانية هي روحُ العالم الجديد. وكان أحد مساعدي الفوهرر يقول: لا تبحثوا عن هتلر في عقولكم ستجدونه في قلوبكم. وبالمناسبة هنا فقد شكلت الفلسفة الهيجلية الخلفية الأيديولوجية

للنازية الهتلرية. وقبلها آمن الشيوعيون البلاشفة بأفكار لينين وقدسوها، واعتبروها مفاتيح الكون. نشير إلى هذه الوقائع للتأكيد على أهمية الفكرة إلى جانب المادة في النهوض والعبور. ولذا فحين احتلت اليابانُ مقاطعةَ منشوريا الصينية، مطلع ثلاثينيات القرن الماضي وأرادت الصين استعادتها من اليابانيين عللت أولا بأن ما حصل لهم من عقوبة هو بسبب تقاعس الصينيين عن تطبيق تعاليم كونفوشيوس، معلمهم الأكبر، ولا حلَّ إلا بالعودة إليها، وفعلا قاد الزعيم تشانج كاي حركة إحياء دينية وفلسفية واسعة، على ضوء تعاليم كونفوشيوس، استمرت لسنوات طويلة بعدها. ليس ذلك فحسب؛ بل حين حاول الزعيم الصيني المعاصر ماو تسي تونج فرض الشيوعية على الصين لم يستطع ذلك على الرغم من سطوته القوية التي عرف بها، ذلك لأن بعض قيم الشيوعية تتناقض مع القيم الروحية لتعاليم كونفوشيوس.

ويربط المفكر الإسلامي المعروف علي عزت بيجوفيتش بين الثورة والتدين بالقول إن المجتمع العاجز عن التدين هو أيضا عاجز عن الثورة، والبلاد التي تمارس الحماس الثوري تمارسُ نوعًا من المشاعر الدينية الحية. إن مشاعر الأخوة والتضامن والعدالة هي مشاعر دينية في صميم جوهرها.

والثورة هنا لا يقتصر معناها على الفعل الكلاسيكي بمعناه السلبي المدمر أحيانا؛ بل الثورة الشاملة في الفكر والتصور والسلوك والتغيير الإيجابي الخلاق بعيدا عن العنف. والمفهوم الثوري بهذا المعني الإيجابي الشامل قد يتبناه الحكام أنفسهم، أي قد يبادرون هم إلى التغيير، أو بالأصح «التغيّر» قبل أن تسبقهم الجماهير إلى المطالبة بذلك.

إن حالات التفاعلات الداخلية لأي حدث أو فعل ما تتبلور في طريقها من الجزئي إلى الكلي، ومن الأصغر إلى الأكبر، ومن اللامرئي إلى المرئي، وعند هذه الحالة يكون التحول الحتمي لأي حدث، كالماء مثلا حين تجري عملية تسخينه وغليه، يبدأ بالسخونة رويدا رويدا، وما أن يصل إلى درجة 100% حتى تبدأ عملية التحول لكمية الماء داخل هذا الإناء من البرودة إلى السخونة، فالغليان، ومن الحالة السائلة إلى الحالة الغازية. وهو ما يسميه البعض أيضا بظاهرة «التغيُّر والتغيير» فالتغيُّر نتاج طبيعي لعوامل داخلية في بنية الحركة والحدث، بفعل التطور الطبيعي للمجتمع، يفرزه التراكم الكمي بصورة تلقائية وطبيعية، كعملية الولادة للحامل؛ أما التغيير فهو حالة خارجية، يتم بالتدخل في واحدة من اثنين: إما تسريع للتراكم، أو استجلاب للتحول، بصورة قسرية، تشبه عملية التوليد، لا الولادة، وخطر هذا التغيير أنه قد ينتهي بصورة خارج مساق التصور والرؤى الأولية، وخارج سياقات الفعل الطبيعي، وهذا ينطبق على بعض ثورات الربيع العربي التي حدثت بفعل «التغيير» كتدخل من خارج بنية الأنظمة نفسها لأنه لم تحصل عملية «تغير» داخلية في بنية هذه الأنظمة التي كان يجب عليها أن تجدد نفسها بنفسها من داخلها، وأن تسبق علمية التغيير الخارجية؛ لأن التغير عملية مقدور عليها من داخل بنية النظام نفسه، بالانتقال من طور إلى طور، ومن حالة إلى حالة؛ أما عملية التغيير فيصعب التحكم بها أو توجيه مسارها، وهو ما كان فعلا.

ويكاد ينطبق قانون التراكم الكمي على كل الثورات الناجحة في كل أنحاء العالم؛ حيث أفضت التراكمات الكمية خلال عقود وربما قرون من الزمن

إلى خلق حالة من التحول النوعي في التغيير والبناء الجديد، وفقا لشروط المرحلة، ولشروط البناء ذاته؛ إذ تحولت أنظمة من الإقطاع إلى الاشتراكية، وتحولت أخرى من الاشتراكية إلى الرأسمالية؛ ذلك أنَّ عمليّةَ التراكمِ الكمي قد استنفدت كلَّ شروط البقاء، فأفضت إلى التحول الجديد «النوعي» بصورةٍ مفاجئة أو شبه مفاجئة على الأقل، في عملية مركبة ومتداخلة يصعب تقييمها أو حصرها في سبب واحد أو عامل وحيد؛ ذلك أن طبيعة الأحداث المركبة لها أكثر من وجه، تتعدد فيها المدخلات، كما تتعدد فيها المخرجات. إنهما عمليتان تشبهان «الموت الطبيعي» و«القتل» الأولى تسير بحالة طبيعية، فيما الثانية اعتراض وخرم أجل بحسب تعبير أدبيات الفقه الإسلامي.

من ناحية أخرى لم تكن الحركات الإرهابية أو النظريات المتطرفة إلا حالة من التحول النوعي بعد حالة طويلة للتراكم الكمي في عملية نقيضة، فأنتج النقيضُ نقيضَه بلا حسبان؛ لأن أقصى اليمين في خدمة أقصى اليسار كما قيل. وما أشبه هذا القانون بالسيول الجارفة، ينظر الناس أحيانا إلى السيل كنتيجة، لكنه ينسى أن هذا السيل العرم أصله من قطرات بسيطة، تراكمت كليا، فتحولت نوعيا، تماما كحركة المجتمعات التي تبدأ في احتجاجات فردية بسيطة متفرقة هنا وهناك، ثم ما تلبث أن تتجمع في عاصفة غاضبة، كما تجمع ذلك السيل من قطرات.

الطبيعة والدين

قانونُ الطبيعة إشارةٌ إلى منظومةِ المسلَّماتِ الإنسانيّة العقليّة، معززة بمنطقِ التجربةِ والواقع التي تتفقُ عليها البشريةُ قاطبة، وتمثلُ لها رصيدًا إنسانيًا تبني عليه تجاربَها اليومَ وغدًا.

وقانونُ الطبيعة بهذا المعنى الشّامل يمثلُ القانونَ الأهم والأول عند لوك، لأنّ الأديانَ ليست إلزامية إلا لأتباعها فقط، وليست ملزمة للآخرين، بينما قانونُ الطبيعةِ والوجود أعمُّ وأشمل، فهو مُسلّمةٌ عامة، يتفقُ عليه الجميعُ بلا استثناء، وهو مُلزمٌ لكل البشر بقوته الذاتية. إنه قانونُ العقلِ الجمعي الإنساني الذي لا يختلفُ عليه اثنان، ولا تقوم حياة البشر بدونه، ولا تستقيمُ حياتهم العامة إلا بهذا القانون.. مرتبطٌ بالإنسانِ وجودًا وعدمًا، قانون الإنسانِ بذاته، بما هو إنسانٌ ذو وعيٍ وعقل، باعتبار العقل حقيقة السّماء المودعة في هذا الإنسان؛ بل صوت الله في الإنسان. وبهذا العقل المُحكم الواعي يتحقق السلام وتسود العدالة، لتكونَ الحياةُ بين الناس هي حياةُ العقل، وتكونَ الحريةُ أيضًا مرتبطة به، فلا معنى للحرية ما لم ترتبط بالعقل، كما أنّ العقلَ مشلولُ الإرادة بلا حرية، وكلٌ منهما يكمّلُ الآخر، وكلٌ منهما مناط التكليف للإنسان، باعتبارِ الحرية مسؤولية بالمقام الأول، لها ضوابطها العقلية والأخلاقيّة، وليست تفلتا بلا قيمٍ أو كوابح، فالحريةُ ـ من منظور لوك ـ تعني في حقيقتها التحررَ من العنفِ والمعوقات، وكلاهما «العنف والمعوقات» يتوجدان حيثُ لا يوجد القانون..!

قبل «لوك» في نظرته هذه كانت الفلسفة الرواقية قد قررت ذلك في العصر الهلنستي، إبان الحكم الروماني، كمرجعية فلسفية للدولة الرومانية، تتجاوز المرجعيات القُطرية التي تحكمها الإمبراطورية الرومانية. ولا شك أن الدعوة قد لاقت تشجيعا كبيرا من قبل الدولة التي تبسط نفوذها على جزء كبير من المعمورة، إذ تتضمنُ هذه الفلسفة الدعوة إلى الروح الجمعيّة والمشترك الإنساني وتحكيم قيم العقل والخضوع لقانون الإمبراطورية، وإن خلت من الدعوة إلى الروح الدينيّة.

إذن الحريةُ لزيمُ القانون تمامًا وقرينُه الطبيعي، وعلى هذا المفهومِ ركز سارتر، الفيلسوف الوجودي المعاصر في «وجوديته» التي اتخذت من الإنسان موضوعًا لها، بناءً على هذه القيمةِ الإنسانيّة الكبيرة؛ لأنّ القانونَ الطبيعي يفرضُ على الشخص واجباتِ الحياة التي يعيشُها بكل مسؤولية، كما يقضي له بحقوقه المتوازية مع هذا الواجب، وأساسُ كل هذا هو المعرفة التي تقتضي الالتزامَ بالقانون. ومن ناحية أخرى فإن الفلسفة الوجودية المعاصرة تمثل التفكير بصوتٍ عالٍ عن معنى الحياة الإنسانية وكينونتها؛ لأن اكتشاف أو إدراك معنى الحياة يفضي إلى مزيد من الإبداع والتعاطي بإيجابية مع مستجداتها الدائمة.

ويربطُ «لوك» بين قوانين الطبيعة والضمير الإنساني الذي يعتبرُ المرجعيةَ الأصل لكل سلوكٍ أو تصرفٍ بشري؛ بل إنه القانون الحقيقي والمرجعية الوحيدة في حال غياب قوانين الدولة.

وإلى جانب «لوك» ممن تبنوا هذا المذهب المجدد الديني الهندي أحمد خان الذي ربط الحقيقة الدينية بالعقل الطبيعي، والحقيقة الدينية في

نطره هنا هي القرآن الكريم فقط، أما ما أسماه الشريعة، أي تنظيرات الفقهاء فلا علاقة لها بالحقيقة القرآنية، وهي مفصولة عن العقل الطبيعي. وتبنى نظريته هذه بعض تلاميذه الذين أطلق عليهم بعد ذلك «النيتشريين»، نسبة إلى Natural. «الطبيعة». وقد انتقد هذه النظرية المفكر الإسلامي الدكتور محمد البهي، واعتبر نظرية خان من قبيل التماهي والافتتان بالطبيعيات الغربية المادية، وهو افتتان يؤدي إلى نكران القيم الروحية التي تكتنز بها روح الشرق، فيما مذاهب الغرب منها خلاء.. إلخ.

وفي هذه الجزئية تحديدا ـ رؤية كل من الشرق والغرب ـ خصص الفيلسوف المصري زكي نجيب محمود كتابه «الشرق الفنان» الذي توقف فيه مسهبًا القول في القيم الشرقية والقيم الغربية، مُشيرًا في أقربِ تصويرٍ لذلك بالقول: وإني لأزعمُ أن نظرةَ الشرق إلى الوجود كانت نظرة الفنان، على حين كانت نظرة الغرب إلى الوجود نظرةَ العالِم، حتى لتستطيع أن تعدَّ الشرق معرضًا كبيرًا من معارضِ الفن، وأن تعدَّ الغربَ معملا كبيرًا من معاملِ العلم.

والواقعُ أنه لا تضاد بين كلا المصدرين «الكتب المقدسة وقانون الطبيعة» فكلاهما في محصلتهما النهائيّة من إرادةِ السّماء التي تجري على الخليقة، وتعبير عن إرادة الخالق. وقد كان جون كالفن ـ وهو المصلح اللاهوتي البروتستانتي ـ يرى أن يد الله فاعلة في كل شؤون الطبيعة، يتصرف فيها بحكمة، وما الظواهر الطبيعية إلا أحد اثنين: إما رحمة للخلق أو نقمة لهم، وفي الحالتين فكل ما يحدث فيها اختبار للخلق، والعناية الإلهية في الطبيعة داخلة في كل صغيرة وكبيرة، حتى في شعر رؤوسنا حد تعبيره،

متبنيا النظرية الجبرية بتفاصيلها، مفيضًا الشروحَ في قصة أيوب ومقتل يسوع الذي جرى بعلم الله المسبق.. إلخ.

المستقبل والدين

آنَ للدين «المُعقلن» أن يسود، بدلا عن دين «المنفعل» الذي تبناه جهلة المتدينين، فجنى الويلات على الأمم والشُّعوب، الدين المعقلن القابل بمتغيرات الحياة الجديدة وبقواعد العيش المشترك والقائم على صناعة الفعل الواعي، لا على ردة الفعل الغاضب؛ لاسيما وقد جربنا الصّراعَ قرونا طويلة فلم تثمر إلا مزيدًا من الدمار والهلاك، بصرف النظر عن الأسباب والمسببات لذلك الانفعال والغضب.

ووفقا للمفكر العراقي الدكتور عبدالجبار الرفاعي: إنّ البشريةَ اليوم بأمس الحاجة إلى تعزيز النزعة الإنسانية عبر استيعاب الحياة الروحية الخصبة في الدين، وإحياء التجارب الإيمانية، تلك التجاربُ التي تمنحُ أصحابها رؤية يصبح فيها العالمُ ساطعًا شفيفًا، ممتلئًا بالمعنى، يتخلق فيها الإنسانُ بأخلاق الله، وتغدو صفات الله مؤشرات وغايات عظمى لمخلوقاته، يجبُ أن يكدحَ الجميع للانخراط في مدياتها الرحبة؛ بل يسعى العرفاء والمتصوفة الذين تطغى في وجدانهم أشواق الروح ليكونوا مرآة لها. أ. هـ

وفي كتابه الدين والاغتراب الميتافيزيقي يقول: أنسنة الدين التي أدعو لها هي نمطُ حضورٍ للإله الروحي الأخلاقي في حياة الإنسان، وبكلمة أخرى أنسنة الدين تنشدُ دينًا روحانيًا وأخلاقيًا وجماليًا، لا يقطع الصلة بالله، ويجعلُ الدين ظاهرة بشرية خالصة، مثلما لا يتجاهل الطبيعة البشرية، ويتعاطى مع الإنسان وكأنه روح مجردٌ فقط؛ بل يوظف كل المعطيات

المتاحة للتفكير والفهم الصحيح لحقيقة الإنسان. وهو كما يسعى لتأمين احتياجاته الجسدية في إطار هذا الفهم لا ينسى احتياجاته العابرة للجسد من حاجة لمعننة الحياة، وتنمية القدرة على التغلب على القلق الوجودي، وتزويد الإنسان بما يخفف عنه آلام العيش، ويُقلل أوجاع الحياة، ويخلصه من التشاؤم والعدمية في العالم الذي يعيش فيه، ويمنحه طاقة إضافية تمكنه من العيش بألمٍ أقل كلما تعرض لما يفوقُ طاقته المحدودة من آلام، ويضفي على حياته معنى أكبر كلما تكشفت له مواقف تشي بالعبثية واللامعنى في العالم. أ. هـ

هذه إشارة مهمة، اقتبستها على طولها، وقد لخص فيها الكاتبُ الحقيقة الجامعة، لتقديم رؤية كليّة شاملة عن فلسفة الدين الجامعة، بعيدًا عن المدونات الأيديولوجية الخاصة بكل جماعة أو تيار؛ إذ رأى الفقهاء في مدوناتهم الفقهية أنهم الناطقون الرسميون باسم السماء، وادعى العرفانيون أنهم الحقيقة والحقيقة هم، ولا تتعداهم لغيرهم، وسخر الفلاسفة من الطرفين معًا مدعين أن رؤاهم هي الحقيقة الجامعة، فيما الحقيقةُ أنّ كل طرفٍ ـ سواء من هؤلاء أو غيرهم ـ قد أمسك بطرفٍ وأحاط بجزء فقط، ولا يستطيع ـ من ثم ـ ادعاء الحقيقة الكاملة، فالحقيقة تكمن في الاستقراء الكلي للصورة الجامعة لدى هؤلاء جميعًا، لا عند طرف ما بعينه، مضاف إلى ذلك البعد الزماني بما يختزل من ثقافة، والبعد الزماني بما يحمل من تطورات، إذ التصورات والأفكار مرتبطة ببعديها الزماني والمكاني، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، وكلٌ ينطلق في تصوراته ومعتقداته من هذين البُعدين الأساسيين.

آنَ الوقتُ للإجماع على مدوّنة دينية واحدة، ذات صبغة عالمية، تؤمنُ بالتنوع ولا تنفي الخصوصية، تحترم المسلّمات الكبرى، ولا تناقض المبادئ العامة لأي دين، بما في ذلك الأديان الأرضيّة. تمثلُ هذه المدوّنة ـ فيما تمثلُ ـ مرجعية كبرى للأسرة الكونية الواحدة بعد طول صراع جلبت معه الويلات والدمار للأبرياء.

المشترك الإبراهيمي.. المعادلة الجامعة

الإبراهيمية: نسبة إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام، الملقب بأبي الأنبياء، والمذكور في الكتب المقدسة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، ويحظى بقداسةٍ عند جميع أتباع هذه الشرائع. ويردُ اسمُه تارة باسم إبراهيم، وتارة باسم «أبرام».

والإبراهيميّة إشارةٌ إلى الشرائع السّماوية المذكورة آنفا، والتي يعتقد أتباعُها أنها تتصلُ بنبيّ الله إبراهيم، عليه السلام، باعتبار أنّ جميعَ الأنبياء بعده مِن نسله، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ العنكبوت: 27. وأنّ دعوةَ إبراهيم التوحيديّة هي دعوةُ جميع الأنبياء من بعده. وتُعرف بملّة إبراهيم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وفكرة التوحيد قديمة قبل إبراهيم، برزت في الحضَارة اليمنيّة القديمة، منذ هود «عابر»، سليل نوح، ثم قحطان من بعده، إلى آخر الأبناء الملوك من سلالته، ووردت في وصاياه، كما وردت في وصايا هؤلاء الأبناء من بعده. كما أنها موجودة أيضا في بقية الحضارات الأخرى.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾. هذه هي الحقيقة الجامعة، وهي الإبراهيميّة المتجددة، وما انبثق عنها بعد ذلك إنما هي شرائع، تنزع إليها، تجلت في شريعة موسى، وشريعة عيسى، وشريعة محمد.

إنّ المتتبع لتاريخ الشرائع السماوية التي تنزلت خلال فترات متقطعة من

التاريخ البشري وتاريخ الرسالات نفسها يجدها تنزعُ ـ في أسمى غاياتها ـ إلى هدفٍ واحدٍ وإن اختلفت هذه الشرائع في بعض تفاصيلها المتعلقة بتحولات المرحلة وتطور التاريخ البشري نفسه، هذا الهدف هو التوحيدُ الذي جاءت به كل الرسالات وتنزلت من أجله كافة الشرائع. وهو ما يقررُ في النهاية واحدية الدين الإلهي، دين كل الأنبياء والرسل وقد ذكر الله ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ آل عمران:19. دينٌ واحدٌ تخلّق عبر الأطوار الزمنية على أكثر من شرعة، متساوقة مع الزمان والمكان، حتى اكتمل في صورته النهائية، وهي صورة تمثل الحقيقة الجامعة لأمة الكون.

مؤكدا على ذلك بالقول: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ آل عمران: 85. وأيضا:﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ البقرة: 130.

في التوراة من العهد القديم ما يؤكد على واحدية الربوبية التي أوصى الله بها موسى أن تكون على قلبه وأن يُوصيَ بها بنيه من بعده:

4:6 اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد.

6: 5 فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك.

6: 6 ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك.

6: 7 وقصها على أولادك وتكلم بها حين تجلس في بيتك وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم.

6: 8 واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك.

وأيضا:

6: 13 الرب إلهك تتقي وإياه تعبد وباسمه تحلف.

6: 14 لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم.

فهذا نبي الله نوحٌ يخاطب قومه ـ بعتاب وقد طالت دعوته فيهم : ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ يونس: 71.

وهذا نبي الله إبراهيم ـ عليه السّلام ـ يحكي عنه القرآنُ الكريم إسلامَه لرب العالمين، كما يحكي وصيته لبنيه باتباع شريعته: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ البقرة: 130. لتكون إحدى ثمرات هذا الدعاء دعوات كل الأنبياء من بعده، وكلهم من سلالته التي نجدها في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ يوسف: 101.

ونفس الأمر نجده عند نبي الله موسى . عليه السلام . مخاطبا قومه وموجها لهم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ يونس: 84.

وحين تنامى إلى مسامع عيسى عليه السلام أنّ مِن قومه مَن كفرَ وقف أمامهم مخاطبًا إياهم بحقيقة إيمانهم به: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ آل عمران:52؛ ليكلل الرسول محمد .صلى الله عليه وسلم .شريعته بنفس التوجه وبذات الحقيقة التي تقرر صدق دعوات مَن قبله من الأنبياء والرسل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١﴾ النمل: 91.

وحتى في طبيعة الخطاب النبوي لكل الأنبياء الذين عرضوا دعواتهم على أقوامهم فإن الطريقة تكاد تكون واحدة عند الجميع، كما تكاد استجابة أقوامهم تكون واحدة على الرغم من اختلاف عصورها.

يخاطب نوحٌ قومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ الأعراف: 59. ويخاطب نبي الله هود قومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ الأعراف: 65. ويخاطبُ صالحٌ قومَه بذات اللهجة والخطاب: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ الأعراف: 73. وأيضا فقد قص لنا القرآن حال إبراهيم .عليه السلام .مع قومه من بعدهم: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾ العنكبوت: 16. وهكذا حال كل الأنبياء.. ولهذا خاطب الله نبيه محمدًا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ الشورى: 13.

فالدين واحد وإن تعددت الشرائع، لهذا أثنى الله تعالى في كتابه الكريم

على بعض من قوم موسى بقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴿١٥٩﴾﴾ الأعراف: 159.

وعلى كتابهم «التوراة» بأنها هدى ونور. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ..﴾ المائدة: 44.

وأثنى بعد ذلك على إنجيل عيسى بقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴿٤٦﴾﴾ المائدة:46

وأثنى بالجملة على أهل الكتاب عامة بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴿١٩٩﴾﴾ آل عمران: 199.

وأثنى الله على قرآن محمد بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء: 9.

وفي الحديث النبوي المتفق عليه: الأنبياءُ إخوةٌ لعلّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد.

وبالجملة فكلها كتب الله المقدسة التي تنزلت من السماء، مضمونها واحد، ودعوتها واحدة. وكون الشّرائع الثلاث تنزع إلى دين واحد فإن ذلك تقريرٌ جلي، ودعوة صريحة إلى أخلاقيات عالمية كونية واحدة، هي المشترك الجامع لبني الإنسان، القائم على «كلمة سواء»، سواء من الإسلام التاريخي

قبل محمد أو من الإسلام المحمدي. تلك هي منظومة القيم الأخلاقية والإنسانية التي أسست لها الأديان السماوية؛ بل والأرضية.

﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ..﴾ الشورى: 13.

أمّا مَن تفاضلَ على الآخر واستعلى عليه، سواء لجنسه أم لدينه أم لجغرافيته فذلك ما لم يأذن به الله أو يقله: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ النساء: 123.

الإله واحد، والدين واحد، والأصل البشري واحد، والكوكب الذي نعيش عليه واحد، والمآل الأخروي واحد، إذن فلتكن الأخلاقُ واحدة، وليكن الخيرُ واحدًا والعيشُ واحدًا..

الكتب المقدسة.. منطلقات في العيش المشترك

الكتبُ المقدسة بما هي وحي وتشريع من السماء نزلت على الأنبياء الإبراهيميين، وهي ملحقة بأسفارٍ مهولة من الشُّروحات الصحيحة وغير الصحيحة التي ألحقها بها رجالاتُ الدين. وهذه الكتب لا تزال متصدرة الروح الجمعيّة؛ بل تفاصيل حياة الناس اليومية بصورة لا تنفك عنها. وتشكل مجملَ معارفهم في الأخلاق والتصورات، وكذا تمثلُ موجهًا رئيسيًا للسلوك. ومن الأهميّة بمكان توظيف هذه القيمة الدينيّة الكبرى في تعزيز الجوانب الإيجابيّة في حياة البشريّة، وكلٌ من مصدره الديني الذي يؤمن به أو يعتقده، خاصّة وفيها من قيمِ المحبة والتسامح والعيش المشترك الكثير.

في اليهودية: «تحبُّ قريبك كنفسك». وأيضا: «لا تفعل بجارك ما تكرهه أنت».

وفي المسيحية: «أحبوا أعداءكم». وأيضا: «كل ما تريد أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم».

وفي الإسلام: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ فصلت: 34. «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه».

في البوذية: «لا تؤذ الآخرين بأشكال تجدها أنت مؤذية لنفسك».

في الزرادشتية: «الطبع الجيد وحده هو الذي يتجنب الفعل بالآخرين كل ما ليس طيبا بالنسبة إليه».

في الكونفوشيوسية: «لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك».

في المهابهارتا الهندوسية: «لا تفعل بالآخرين ما يسبب لك الألم إذا فعلوه بك».

إنّ تفعيلَ مضامين السلام وقيم المحبّة الكامنتين في الكتب المقدسة لضمانةٌ عالميّةٌ كبرى للسّلام العالمي، وبدون تفعيلها أو استغلالها في هذا الجانب، وعلى نحوٍ إيجابي، فحتمًا ستحلّ محلها ثقافة التعصب والكراهية والرفض، منطلقة من ذات المصدر؛ ذلك أن صوتَ العقل حين يغيب يحل محله تلقائيا صوت الجنون، وفي حال تَرك ذوو النزعة الخيريّة في هذا العالم فراغًا حتمًا سيتمدد فيه ذوو النزعة الشّريرة. ووفقًا لإيريك هوفر في المؤمن الصادق: «عندما يصبح المسرحُ جاهزًا فإنّ ظهورَ القائدِ الموهوب يصبحُ أمرًا محتومًا».

مع الأديان الأرضية

المتأمل في فلسفات الأديان الأرضية كالزرادشتية والكونفوشيوسية، وغيرهما يجد أنها ديانات أرضية، إلا أنها لم تبتعد كثيرا عن السماء، فثمة يقينيات كامنة في جوهرها تشير إلى رب واحد للكون الأعظم، كما سنرى.

الزرادشتية

الزرادشتية أسسها زرادشت في فارس سنة 800 قبل الميلاد، بحسب المؤرخ البريطاني آرنولد توينبي، واستمرت ديانة الفرس الأولى فيما بين العهدين الاخميني والساساني حتى دخول الإسلام بلاد فارس فتراجعت هذه الديانة التي كانت قد دخلتها تأويلات أخرى، وتراجع وهجها الروحي، ليجد الفرسُ بغيتهم الروحية في الشرعة المحمدية عقب القادسية في عهد عمر بن

الخطاب، إلى حد أن الزرادشتيين وجدوا أنفسهم أقلية هناك، فهاجر أغلبهم إلى بلاد الهند، وهناك استقروا. وتقوم عقيدة الزرادشتية على فلسفة ثنائية الخير والشر في هذه الحياة، وهما من خلق أهرمازدا «رب الكون الأعظم» أو صاحب الحكمة المضيئة، ووظيفة الإنسان وفقا لهذه الفلسفة إجبار نفسه على الخير ومقاومة الشر، لأن الغلبة في النهاية للخير، وهم يؤمنون بالبعث والنشور والحساب والجنة والنار والبرزخ والميزان والصراط، كما يؤمنون بالحور/ الحنور/ الحوري في الجنة، وأن ممارسة الجنس معهنّ ستكون مكافأة أبطال الحرب بعد مقتلهم في ساحة الوغى، ويؤمنون بالملائكة كمساعدين للإله، كما يؤمنون بالشياطين وبالمُخلص أو المهدي المنتظر.

وتعتبر الديانة الزرادشتية من الديانات التي اختلطت بجميع الأديان فتأثرت بها وأثرت فيها، كالبابلية، وأيضا اليهودية والمسيحية والإسلام، كما أنها أداة الاتصال الثقافي بين الفرس من جهة والهند من جهة أخرى، ثم الأديان السماوية الأخرى، وثمة مشتركات كثيرة جدا بينها وبين اليهودية تلاقَحَتا أيام السبي البابلي، كما هو الشأن أيضا مع الديانة الإسلامية بعد ذلك. فلهم صلاة الفجر والظهر والعصر والليل، وصلوات أخرى في مناسبات مختلفة. وأعظم الفضائل عند الزرادشتيين هي التقوى.

والزرادشتية تقدس النار والماء معا، وتتطهر بهما قبل ممارسة طقوس العبادة. وتعتبر الشعلة ذات السبع الشعب إشارة إلى السبع الفضائل المقدسة عندهم «الحكمة والشجاعة والعفة والعمل والإخلاص والأمانة والكرم» وتأتي هذه السبع مقابل السبع الرذائل الملعونة في معتقداتهم، وهي: «النفاق والخديعة والخيانة والجبن والبخل والظلم وإزهاق الروح».

ولا يتسامحون في الربا ويعتبرونه من أرذل الرذائل. ولهذه القيم المتوارثة في عقيدتهم عاملهم المسلمون عقب الفتح الإسلامي لبلاد فارس معاملة أهل الكتاب.

وفيهم النباتيون الذين تأثر بهم بعض الفلاسفة المسلمين مثل ابن الرومية وابن البيطار وأبي العلاء المعري وغيرهم.

وقانونهم الأخلاقي يقوم على القاعدة الذهبية: «الطبيعة لا تكون خيّرة إلا إذا منعت صاحبها أن يفعل بغيره ما ليس خيرًا له هو نفسه». وعلى الإنسان أن يجعل العدو صديقًا، وأن يجعل الخبيث طيبا، وأن يجعل الجاهل عالما. ولتعصبهم لمعتقداتهم هذه فهم يرونها أفضل المعتقدات وأرقاها، ولذا يقومون بإعدام الخارج عنها من الأصليين منهم، خلافا لمن اعتقدها من غيرهم ثم خرج فإنهم يتساهلون معه، لأنه دوني في نظرهم، أما أرضهم فهي أفضل الأرض على الإطلاق، وأن فضائل الخليقة كاملة تُقاس بمقدار قربها من أرضهم في بلاد فارس، وشرها يقاس بابتعادها أيضا.

والزرادشتية اليوم ديانة شبه منقرضة، فأتباعها في إيران والهند وباكستان لا يزيدون عن مئتي ألف نسمة، وثمة مجاميع قليلة من المهاجرين في بعض دول العالم.

الكونفوشيوسية

تنتسب إلى الفيلسوف كونفوشيوس الصيني الذي ظهر هناك في القرن السادس قبل الميلاد، داعيًا إلى تصحيح عقيدة الآباء والأجداد الموروثة، والتي بدأت بالانحراف عن النهج الصحيح الذي رآه كونفوشيوس. فعمل

على المزاوجة بين ما يراه تعاليم سماوية وبين الفلسفة.

هذا ليس المهم هنا، الأهم هو منظومة القيم الأخلاقية والروحية والفلسفية التي تنطوي عليها الكونفوشيوسية، خاصة المذهب التحليلي داخلها الذي يشبه البروتستانتية المسيحية، مقابل المذهب المتشدد الحرفي داخلها «الأرثوذكسي».

تؤمن الكونفوشيوسية بالإله الأعظم، أو إله السماء، وتؤمن بالملائكة، وإلى جانب ذلك تؤمن بأرواح الأجداد الذين يشبهون «الأولياء» في الفكر الصوفي الإسلامي. كما تؤمن بالقضاء والقدر؛ لكنها لا تؤمن بالبعث أو الجنة والنار، ولم يستطيع المعلم كونفوشيوس تقديم إجابة واضحة عنهما، بل أجاب على من سأله: إنّنا لم ندرس الحياة بعد، فكيف نستطيع أن ندرس الموت؟!

والكونفوشيوسية تحترم الأخلاق وتكاد فلسفتها تدور حولها، سواء أخلاق الفرد، أم أخلاق الجماعة، أم أخلاق الشعب. ولهذا فحين شخص الفيلسوف هيجل كونفوشيوس شخصه بأنه رجل أخلاق بالمقام الأول، لا فيلسوفا.

وإلى جانب هاتين الديانتين أيضا الهندوسية التي تعتبر ثالث ديانة في العالم بعد المسيحية والإسلام، والمنتشرة في الهند والنيبال، وأيضا البوذية ذات التعاليم الأخلاقية والمنتشرة في الهند ودول شرق آسيا.

الوصايا العشر

دعوةُ السّماء واحدةٌ منذ الأزل، وهدفُ الأنبياء واحد أيضًا. لهذا التقت

الشرائعُ السماوية في مجمل أهدافها، غير أن ثمة من حرفها عن مسارها بعد ذلك، أو أراد، من خلال التأويل المحرف لمضامينها.

ولما كان بنو الإنسان يقطنون جميعا هذه الرقعة الجغرافية الواسعة والمترامية الأطراف، وهم متساوون في الواجبات التي عليها تقوم مصالحهم الدينية والدنيوية، فإنهم بالمقابل متساوون في الحقوق المشروعة لهم على ضوء هذه الواجبات، التي تفصلها وتبينها قوانينهم وفقا لمقتضيات مصالحهم، وبما يتلاءم أو يتناسب ودور كل منهم على السواء حتى لا يطغى أحد على أحد أو جماعة على جماعة، فما داموا شركاء في العمل أو في الواجب فهم شركاء في العائد مما على ظهر هذه البسيطة من الخيرات والثروات، لأن الاستئثار بجزءٍ من حقوق الناس قَلَّ أو كثُرَ يؤدي إلى الطغيان، وإلى اختلال التوازن الاجتماعي بين أبناء المجتمع الواحد كما يقرر الكتاب الحكيم: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ العلق: 7.

وقد جاء الدينُ وتنزلت الشرائعُ لمحاربة الطغيان أي كان شكله أو لونه، ولتقرير مبدأ العدالة الإنسانية. وما أحوجنا اليوم إلى حوارٍ شاملٍ أساسه الندية والتكافؤ للوصول إلى القواسم المشتركة و«الكلمة السواء» من أجل تعايش خلاق وإيجابي بين بني البشرية.

بين يدينا «الوصايا العشر» في الشرائع الثلاث التي تمثل الدستور الجامع للحياة العامة بين بني البشر.

أولا الوصايا العشر في الكتاب المقدس

الوصايا الدينية

1. لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي.

2. لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ.

3. لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلًا، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا.

4. أُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ.

الوصايا تجاه الأهل

5. أكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ.

الوصايا تجاه المجتمع

6. لَا تَقْتُلْ.

7. لَا تَزْنِ.

8. لَا تَسْرِقْ.

9. لَا تَشْهَدْ شَهَادَةَ زُورٍ.

10. لَا تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لَا تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلَا عَبْدَهُ، وَلَا أَمَتَهُ، وَلَا ثَوْرَهُ، وَلَا حِمَارَهُ، وَلَا شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ.

هذه هي الوصايا العشر في الكتاب المقدس «العهدين القديم والجديد» والتي قال عنها المسيح: إن أردت أن تدخلَ الحياة فاحفظ الوصايا.

ثانيا: الوصايا العشر في القرآن الكريم

لنتأمل معا المشتركات الجامعة بين الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وبين هذه الآيات القرآنية التي تُعتبر من آخر ما نزل من القرآن الكريم، ونرى مقدار التشابه بين هذه النصوص، التي تقرر فعلا واحدية هذا الدين المنزل من عند الله، وتقرر كذلك واحدية المبادئ الإنسانية،

وواحدية القيم والأخلاق، لتشكل ما يمكن أن يكون قاسما مشتركا بين الجميع، كعقد دستوري ومرجعية أخلاقية لا غنى لطرف عنها مهما ادعى ذلك. وهو قاسم مشترك قمينٌ أن يجمع ويوحد ويؤلف بين المتنافرين والخصوم الذين افترقوا، ثم احتربوا.

﴿۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـٔٗاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنٗاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾. الأنعام: 153.

هذه النصوص وغيرها من النصوص الأخرى في العهد القديم والعهد الجديد تمثل في مجملها دستورًا للتعامل الإنساني في مختلف الجوانب، سواء ما يتعلق منها بالأمر الدنيوي أو الأمر الأخروي. وما يلفتُ الانتباه في النص القرآني اختتام الآيات الثلاث التي تضمنت الوصايا الإشارة السماوية: (ذلكم وصّاكم) كما يلفت الانتباه التعليل أيضا: (تعقلون، تذكرون، تتقون). إنها أساسيات الحياة العامة وقواعد العيش المشترك بين بني الإنسانية قاطبة. باختصار.. دستور الحياة العامة وموجهاتها الأساسية جاءت بوحي خاص من السماء لأهميتها.

إلى جانب الوصايا العشر الإبراهيميّة، في الموسوية والمسيحية والمحمدية، فثمة وصايا أخرى أيضا في الأديان والفلسفات الأرضية والتي يمكن أن تمثل رافدًا آخر إلى ما قبلها من الوصايا، لتشكل معها منظومة قيمية أكثر شمولية واحتواء، لتكون فضائل دينية ومبادئ أخلاقية في وقت واحد؛ لاسيما وللأديان السماوية على وجه التحديد سمة العالمية في تعاليمها وتوجيهاتها، وهو ما يمكن أن يجعل من أتباعها المبثوثين في مختلف الأصقاع دعاةَ سلم ومدنية وإخاء.

يقول كونفوشيوس الحكيم: ما لا ترغبه لنفسك لا تفعله للآخرين. كما يقول: الفيلسوف كانط: تصرف وكأن مسلكك سيتحول بإرادتك في كل زمن إلى قانون عام.

والحق أن المشتركات التشريعية أو الأخلاقية لا تقتصر على ما أشرنا إليه من الوصايا فحسب؛ بل ثمة مشتركات قيمية وتشريعية أخرى كثيرة في الشرائع الثلاث، تصلح أن تكون منطلقا للتعاطي الإيجابي بين بني البشر أجمع، بصرف النظر عن وجهاتهم العقائدية أو الجنسية أو الحضارية.

يحكي الرب في التوراة عن نفسه: «لي الأرض». وهو ذاته النص في القرآن: ﴿إن الأرض لله﴾.

في العهد القديم: «إذا أقام في أرضكم غريب فلا تظلموه، وليكن لكم الغريب المقيم عندكم كالمواطن، تحبه كما تحب نفسك، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر، فأنا الرب».

وفي العهد الجديد: «ولا تغفلوا عن ضيافة الغرباء، فبها أضاف بعض القدماء ملائكة دون أن يعرفوا».

وفي القرآن الكريم: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾.

هذه مبادئ إنسانية عامة تؤصل لقيم المشترك الكوني، وإلى جانب كونها مبادئ إنسانية منبعها الضمير، فهي أيضا فضائل دينية منبعها القلب، وهو ما يجعلها أكثر فاعلية وحضورا إن تم تفعيلها.

إننا في أمس الحاجة لحوار ديني ديني بين رجالات الشرائع الثلاث الكبرى ومؤسساتها: اليهودية، المسيحية والإسلام، متبوعا بحوار مع بقية الأديان والفلسفات الأرضية الأخرى كالبوذية والكونفوشيوسية والزرادشتية وغيرها، من أجل العبور إلى عالم يسوده السلام والخير والعدل، بدلا عن الطيش الذي تعاني منه البشرية اليوم، نتيجة أطماع الأقوياء وخنوع الضعفاء، ولتحويل التنوع الإنساني والتعدد إلى حالة إيجابية خلاقة تبني ولا تهدم، خلافا لما هو سائد اليوم في الذهنية العامة كتفكير وثقافة وعلى أرض الواقع كسلوك وممارسة؛ إذ الأديانُ ليست مجرد طقوسٍ دينية تُؤدى في الصوامع، أو شعائر رهبانية تُتلى في المعابد؛ بل قيمٌ روحية وتعاليم أخلاقية منطلقها الأساس التعارف الذي يؤدي إلى المحبة والائتلاف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ﴾.

هذا التنوع الإنساني البديع بين الخليقة كافة يمكن استغلاله للبناء بدلا من كونه ـ في نظر البعض ـ معول هدم أو عامل تفرقة، خاصة مع التقدم العلمي والتكنولوجي الذي تحطمت أمامه كل العقبات، وليس بوسع البشرية أصلا إلا أن تتوحدَ وتغادرَ مربعَ الجنونِ الذي شقت به طويلا، لبناء مجتمعها الكوني الجديد.

إن التعامل القائم على أساس ثنائي حدي صار من القديم أو يجب أن يكون كذلك: الخير والشر.. الشرق والغرب.. الكفر والإيمان، الأفضل والأسوأ إلى آخر هذه القائمة التي جلبت معها الدمار والدماء، وهو خلاف ما تقتضيه توجيهات السماء في الحقيقة الكلية الشاملة ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾. ولا تعارف أصلا إلا بين متناكرين سلفا، وغير متعارفين، بين النقائض ليتحقق الوئام ويسود المشترك الإنساني الجامع، فثمة أُخوّةُ التوحيد، وأخوّة الإنسانية، وأخوّة المصالح المشروعة على هذا الكوكب لضمان استمرار الحياة وفشو السلام. وهذا ما اقتضته الشرائع والفلسفات من قديم الزمن.

إن الوعي بوحدانية الواحد، وبمنطق الوجود الأزلي، وبحقيقة الشرائع يقتضي تجاوز كل نقاط الخلاف والاختلاف في منطوق الشرائع فيما بينها، والتركيز على النصوص الجامعة، وهي أكثر، للبناء عليها ولصياغة المشترك الإنساني العاقل.

الشريعة المحمدية.. الإعلان الجامع

لقد كانت شريعة محمد الإبراهيمية الإعلان السماوي الجامع بعد أن وصلت كل الشرائع قبله إلى طريق مسدود في التعاطي سواء مع ذاتها أم مع غيرها، كانت الوثنية تعيش أزمة مع ذاتها، كما هو الشأن مع اليهودية والمسيحية، داعيًا إلى فلسفة جامعة ومشترك واحد، يضم إلى جانب أهل الكتاب أيضا الحنيفية الإبراهيمية في شمال الجزيرة العربية وشرقها، وديانة الرحمن ذي سماوي في جنوب الجزيرة العربية، وديانة الإله ذي الشرى النبطية، ومعها أيضا الزرادشتية والمانوية والصابئة ضمن نسقٍ ثقافي معين، بلغة واحدة، تؤسس لدولة؛ بل لحضارة جديدة، وهو ما كان، فاستطاع هذا المشروع الجديد استيعاب كل ألوان الثقافات المتناثرة في أصقاع المنطقة، من جنوب الجزيرة العربية إلى شمال أفريقيا، إلى بلاد فارس وأواسط آسيا وبلاد الهند، إلى تخوم الروم في فترة وجيزة، ومن ثم صارت الأمة واحدة، تأسست بموجبها حركة تجارية عابرة للقارات، وتشكلت مجتمعات كوزومبوليتية جديدة، مفتوحة على كل الأجناس والأعراق، فكانت بغداد في العصر العباسي عاصمة الشرق والغرب، كما كانت دمشق كذلك في العهد الأموي، ثم القاهرة والقيروان والحجاز وغيرها، وقد كانت مدنا مغلقة على نفسها قبل ذلك، كما كانت معظم مدن أوروبا أيضا مغلقة على نفسها. وكان من أثر هذا التداخل التأثر والتأثير في اللغات للأمم المجاورة، كالفرس والترك والبربر والأقباط والحبشة وغيرهم، في أجمل لوحة

فسيفسائية متشكلة من كل الألوان. وتعزز هذه الرواية صحة ما ذكرناه هنا. فقد روى خلف بن المثنى قال: لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس واحد لا يعرف أحد مثلهم في الدنيا علما ونباهة، وهم الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب النحو، وهو سني، والحميري الشاعر وهو شيعي، وصالح بن عبد القدوس وهو ثنوي، وسفيان بن مجاشع وهو خارجي صفري، وبشار بن برد وهو شعوبي خليع ماجن، وحماد عجرد وهو زنديق شعوبي، وابن راس الجالوت الشاعر وهو يهودي، وابن نظير المتكلم وهو نصراني، وعمر بن المؤيد وهو مجوسي، وابن سنان الحراني الشاعر وهو صابئي، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في ديانتهم ومذاهبهم. ا. هـ

والحقيقة أن هذا موضوع مستقل بذاته، يصعب رسم لوحة مكتملة عنه في تناولة كهذه، وقد أفاض فيها المؤرخون كثيرا. وهي قيمة إنسانية وحضارية لا نكاد لا نجدُ لها شبها في تاريخ الأديان غير الإسلامية سابقا، وإن كان لها اليوم ألف شبَه وشبه.

لقد مثلت فرقةُ المعتزلة عقلَ هذا المشروع، ومثلت الصوفية قلبه الساكن، ومثل الفلاسفة لسانه الناطق، كما مثلت السلفية ذاكرته الحديدية، في توازٍ متكامل حتى بدأت هذه الجماعات تتآكل فيما بينها فبدأت هذه الحضارة بالانكماش بعد ثلاثة قرون؛ كما هو الشأن في أي حضارة تكتمل لتضعف، وتضعف لتتقوى، كما هو الشأن في الفلسفة اليونانية التي ابتدأت بالآباء المؤسسين، ثم السفسطائيين الذين تأسسوا

رد فعل على غلو فلسفة الآباء تجاه الآلهة والأنساب والقبيلة، فأسقطوا خرافاتهم وغلوهم بالجدل السفسطائي، ثم ما عرف بالثالوث الفلسفي: سقراط وأفلاطون وأرسطو، الذي عمل على ضبط وعقلنة الفلسفة بعد أن بلغت السفسطائية أوجها، وانتهاء بالهلنستية اليونانية التي مثلت الذروة في العهد الروماني، ثم مالت إلى التلاشي.

لاهوت الجبال الثلاثة

جبل سيناء

قد يكونُ الأمرُ لحكمةٍ سَماوية، وقد يكونُ ذلك لمحضِ الصُّدفة أن ترتبطَ الكتبُ المقدسة جميعُها بالجبال، وهذا أمرٌ لا يهمنا هنا، الأهم هي الفلسفة الجامعة لتعاليم الجبالِ الأربعة التي تنزل فيها وحي السّماء لأولِ مرةٍ على الأنبياء، وهو ما يضيفُ لهذه الكتبِ بُعدًا جغرافيًا مشتركا. وأصل الفكرة هنا للباحث والمترجم التونسي محسن العوني.

تنزلت التوراة على موسى عليه السلام في الجبل المعروف بجبل موسى، أو جبل سيناء، جنوب صحراء سيناء، وفيه تجلى الله لموسى لأول مرة، وأيضا تلقى فيه الوصايا؛ علما أن ثمة باحثين جددا ينفون المسرح الإسرائيلي القديم المعروف في سيناء وما حولها، ويعزون النشاط اليهودي القديم إلى جنوب غرب الجزيرة العربية، في سلسلة جبال السراة، وبعضهم قال أنّ جبل «حوريب/ حورب» المذكور في سفر التثنية من التوراة هو «حريب» في اليمن من مارب. وهذا الجبلُ هو نفسه جبل سيناء كما يذهب بعض المؤرخين والمفسرين. وهو من الجبال المقدسة في اليهودية والمسيحية والإسلام، وبه أقسم الله في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾. ويعد مزارًا سياحيا عند الجميع إلى اليوم؛ حيث تقع عند جبل موسى أديرة وكنائس وُجدت فيها بعض النسخ القديمة من الأسفار، باللغات: اليونانية والسريانية والجورجية والأثيوبية والسلافية والعربية

وغيرها. وقد ذكر في القرآن الكريم في سياق الحديث عن موسى ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ١٤٣﴾ الأعراف: 143.

وثمّة معتقدٌ قديم لدى بعض المسيحيين أن في هذا الجبل مبعثًا للسكينة الروحية، فيزورونه كل عام، وقد شيدوا فيه كنائسهم منذ القرن الرابع الميلادي، قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. كما أن ثمة معتقدا عند بعض المسلمين أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عُرج به إلى السماء السابعة من فوق قمة هذا الجبل.

جبل الزيتون

إنه أحدُ الجبالِ المقدسَة في اليهودية والمسيحية والإسلام، وهو الجبل الذي أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ١ وَطُورِ سِينِينَ٢﴾ وإلى هذا الجبلِ كان يتردّدُ عيسى عليه السلام مع تلاميذه وبحسب المعتقد المسيحي فإنه الجبل الذي صعد منه يسوع إلى الله.

وفي هذا الجبل تم اتخاذ العديد من المقابر لليهود، وكذا المسيحيين وأيضا المسلمين، ومن الصحابة المسلمين الذين دفنوا هناك الصحابي سلمان الفارسي، كما بدأت رابعة العدوية الأسعدية صوفيتها هناك، وفي قمته توفيت ودفنت. إن هذا الجبل يوحّدُ أتباعَ الديانات الثلاث.

وإلى جانبِ هذا عُرفت تعاليم مسيحية أخرى تُسمى «مواعظ الجبل»

نسبة إلى جبل الجليل بالقرب من كفر ناحوم، وتمثلُ الدستورَ الأخلاقيَّ الجامعَ لتعاليم المسيح، على الصعيد الديني والقيمي لجميع أتباعه.

جبل حراء

هو جبل شرق مكة، يشرف عليها من جميع جوانبها، سمي لاحقا بجبل الإسلام، وجبل النور، وفيه هبطَ الوحيُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأول مرة، وأقرَأَه الآيات الأولى من سورة العلق. ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾. والجبل إلى اليوم يمثل مزارا دينيا للمسلمين، وخاصة في موسم الحج، حيث يزوره بعضهم تبركا به، وإن لم يكن من ضمن مشاعر الحج المقدسة، والغار عبارة عن مغارتين صغيرتين، على الأرجح كان محمد قبل هبوط الوحي عليه يجلس في المغارة الغربية صباحا، وفي المغارة الشرقية مساء، توقيًا من حر الشمس اللافحة التي تدخل إلى المغارتين. والجبل خالٍ من السكن إلى اليوم، والوصول إليه بمشقة، نظرا لطول المسافة ووعورة الطريق.

وليس ببعيد عن هذا الجبل جبل عرفات أو جبل الرحمة، وهو من أماكن الحج المقدسة عند المسلمين؛ بل هو أقدس ركن في عملية الحج كلها، حيث يقضي فيه الحجيج ما تيسر لهم من الوقت قبل غروب الشمس، ومن ثم ينفرون إلى مزدلفة للمبيت فيها، وقد نسجت حوله العديد من الروايات ما صح منها وما يبدو غير صحيح، كالقول بتعارف آدم وحواء في هذا الجبل بعد هبوطهما من الجنة، وكالقول أن اشتقاقه أخذ من الاعتراف بالذنوب والتذلل لله في يوم الحج الأكبر لطلب الغفران.

وكما عُرف عن المسيح ما سمي بمواعظ الجبل فإن ثمة وصايا الرسول

في خطبة الوداع من جبل عرفات، والتي تمثلُ منظومة قيمة جامعة من الأخلاق، ومنها: أيها النّاسُ إن رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وإنّ أَبَاكُمْ واحِدٌ، كُلكُّمْ لآدمَ وآدمُ من تُراب، إن أَكرمُكُمْ عندَ اللهِ أتْقَاكُمْ وليس لعربيّ فَضْلٌ على عجميّ إلاّ بالتّقْوىَ، أَلاَ هَلْ بلَّغْتُ، اللّهُمّ اشهد» قَالُوا: نَعَمْ قَال: فلْيُبَلّغِ الشاهدُ الغائبَ والسلامُ عليكم ورحمة الله. وفيها أيضا: أَيُهَا النَّاس، إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَليكُمْ حَرَامٌ إلى أنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في شَهْرِ كُمْ هَذَا في بَلَدِكُم هَذَا.. إن لِنسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حقا، ولَكُمْ عَلَيْهِنّ حق.. واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولي، أَيهَا النّاسُ، إنّما المُؤمِنُونَ إخْوةٌ، فَلاَ يَحِلُّ لامرئٍ مَالُ أَخيهِ إلاّ عَنْ طيبِ نفْسٍ منهُ، أَلاَ هَلْ بلّغْتُ، اللّهُم اشْهَدْ، فلا تَرْجِعُنّ بَعْدِي كُفاراً يَضرِبُ بَعْضُكُمْ رقابَ بَعْض.

وكانت هذه الوصايا الجامعة من آخر وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته السماوية التي ابتدأت بجبل حراء، وانتهت بجبل الرحمة، مختتمة بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة:3.

جبال الزبور

وتبقى هنا الإشارة إلى الزبور المنزل على نبي الله داوود عليه السلام، وهي جزء من العهد القديم، فلم نقف على أي جبل تنزلت؛ لكن إشارة القرآن واضحة في خطابه لداوود: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ سبأ:10. والزبور سفر من المواعظ والحكم

والأمثال، كان يتغنى بها نبي الله داوود ذو الصوت الحسن.

والخلاصة أن لاهوت هذه الجبال المقدسة في الديانات الثلاثة المذكورة تمثلُ مرجعيّة أخلاقية وقيمية في العيش المشترك، خاصة لارتباطها بالسماء، وتضمين هذه الوصايا في مناهج التعليم العام قد تمثل ركيزة أخلاقية مهمة، يمكن البناء عليها لدى جيل المواطن العالمي القادم.

لاهوت الأيام الثلاث

إلى جانب لاهوت الجبال الثلاثة المذكورة آنفا، ثم جبال الزبور التي لم نتناولها بشيء من التفصيل كما فعلنا مع سابقاتها، فثمة لاهوت الأيام الثلاث لدى الإسلام واليهودية والمسيحية: الجمعة والسبت والأحد.

يوم الجمعة هو يوم عيد ديني أسبوعي لكل مسلم، يستريح فيه من عمله، وإن لم يكن ذلك على سبيل الإلزام، لكن ما هو ملزم به هو أداء فريضة الجمعة فقط، المشتملة على خطبتين ثم الصلاة من ركعتين. وفي الخطبتين يتناول المسلمون توصيات دينية وأخلاقية أو قضايا لها علاقة بحاضرهم وشؤونهم العامة. والأصل فيهما أن يشعر كل مسلم بالخضوع والخشوع والتوبة مع الابتعاد عن الخطايا والآثام أو الإضرار بالغير.

أما فيما يتعلق بيوم السبت وهو اليوم المقدس لدى اليهود، فتبدأ طقوسه المقدسة من غروب شمس يوم الجمعة، بإسراج المزيد من الشموع أو الأضواء على غير عادة أيام الأسبوع، ومعها أيضا تبدأ طقوس الدعاء من قبل رب المنزل أو ربة المنزل بالبركة والقبول، وهم يحرمون أي عمل يوم السبت بصورة نهائية، حتى تغرب شمسه. وفي المعبد تبدأ العبادة صباح السبت، وفيها مناجاة روحية للجميع تؤدى في المعبد، ولكل معبد أو جماعة طريقتها في تحديد الوقت، فبينما تبدأ العبادة صباحا عند البعض فإنها تبدأ ظهرا عند البعض الآخر.

وفي المسيحية يُعتبر يومُ الأحد هو اليوم الديني المقدس إلا أنه لا يحمل

طابعا راديكاليا كما هو الشأن عند اليهود، فكثير من المسيحيين يتراخون عن حضور القُداس يوم الأحد الذي يشتمل على قراءات إنجيلية وألحان موسيقية دينية، ووفقا لوصايا المعلم بولس: امْتَلِئُوا بِالرُّوحِ، مُكَلِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً بِمَزَامِيرَ وَتَسَابِيحَ وَأَغَانِيَّ رُوحِيَّةٍ، مُتَرَنِّمِينَ وَمُرَتِّلِينَ فِي قُلُوبِكُمْ لِلرَّبِّ.

ولسنا بصدد سرد ماهية أو تفاصيل هذه الطقوس والشعائر؛ إنما الأهم هو الإشارة إلى ماهية هذه التعاليم الدينية على إجمالها، وكيف من الممكن أن تمثل بتعاليمها وفلسفتها ركائز أخلاقية في البناء النفسي والروحي، وفي السلوك والعيش المشترك، خاصة وأنها جميعًا ـ بلا استثناء ـ قد ركزت على الجانب الأخلاقي والقيمي، وعلى تهذيب النفس وتقليم أظافر الوحش الذي يسكن الإنسان.

ثلاثة أيام متتالية في الأسبوع للشرائع الثلاث، وللأديان الأرضية الأخرى أيضًا أيّامُها، تمثلُ ـ فيما تمثل ـ جرعةً أخلاقية وتهذيبية راقية لسكان الكوكب إذا ما تم التعاطي معها بإيجابية، وتوظيفها إنسانيًا. ولا شك أن تأثيرها أكثر في وجدان العامة لارتباطها بالمقدس من حياة الإنسان.

الفصل الثاني

الصوفية.. روح الشرق في الغرب

الصوفية فلسفة وسلوك

استهلال

شرق أم مشارق؟

المتأملُ في منظومة العقل الشرقي وثقافته يخلص إلى نتيجة مفادها أن الشرق مشارق، لا شرقًا واحدًا، كما يرى البعض، وهو خلاف المنظومة الثقافية الغربية التي تكاد تكون واحدة في صورتها الكلية.

البنية الثقافية الهندية تختلف إلى حدٍ كبير عن منظومة الثقافة الصينية، وكلتا الثقافتين تختلفان كثيرا عن الثقافة الشرق أوسطية، اختلاف حد التباين والتضاد أحيانا. في معادلات طردية لا مثيل لها لدى الغرب.

الشرق حالة فسيفسائية متنوعة، في الفكر والثقافة والإرث التاريخي ومنظومة الفنون، وهذا ما ينبغي أن يضعه القارئ نصب عينيه وهو يقارن بين الثقافتين الغربية والشرقية.

الثقافة الأوروبية.. المنطلقات والقيم

تنزعُ منظومة القيمِ الأوروبيّة المعاصرة إلى أربعة منطلقات رئيسية، كخلفية تاريخية دينية فلسفية حداثوية، تشكلت خلال الفترة الزمنية الطويلة، ولا تزال، شكل هذا الرباعي ويشكل وعي وثقافة وسلوك الإنسان الأوروبي اليوم، على النحو التالي:

1. المنطلق الثقافي اليوناني، متمثلا في مجمل التراث الثقافي الذي خلفته أكاديمية أثينا منذ قرون طويلة، بمختلف مدارسها الفلسفية، استطاعت أوروبا الاحتفاظ به وتسويقه للعالم، ولا تزال أصولُ هذا الفكر أوقل مادته الصلبة أحدَ الموجهات الفكرية في الثقافة الأوربية بشكل عام، متمثلة في الديموقراطية، القيم الليبرالية، النزعة العقلية، القيم الفنية والجمالية، المسرح، الفنون، الجدل، الشعر، الأيروس. ليس ذلك فحسب؛ بل حتى المعتقدات والأساطير الدينية، والنزعات الإلحادية، وهذه هي مجمل القيم والثقافات اليونانية في عصورها القديمة التي شكلت نهضتها وقوتها سابقا. فما أنتجه الآباء المؤسسون، ثم السفسطائيون، ثم الثالوث الفلسفي: «سقراط وأفلاطون وأرسطو»، ثم المدارس المتشكلة بعد ذلك كالأبيقورية والكلبية والرواقية، لا تزال إلى اليوم تمثل مرجعية فلسفية وفكرية على تقادم عهدها.

أثنيا، أو اليونان القديمة بشكل عام لا تزالُ حاضرةً في الوعي الجمعي الأوروبي حتى اللحظة، ولم تتلاشَ أو تتكلس ثقافتُها القديمة، كما هو الشأن

في كثير من الحضارات الشرقية القديمة، وينظر لها الأوروبيون جميعًا باحترام وتقدير، كقيمة أوروبية تاريخية، لا قيمة يونانية فقط. هذا ما لم يتوفر لحضاراتٍ شرقية قديمة أكثر عراقة من حضارة اليونان، كالحضارة اليمنية والحضارة الفرعونية والحضارة البابلية؛ ذلك أن أمر هذه الحضارات بقي متروكا لأهلها على الصعيد القُطري فقط، فلم تتجاوزه إلى خارجها إلا نادرا، وربما استطعنا القول أنه لولا نابليون بونابرت وحملته على مصر سنة 1798م لما عرفنا عن مصر ما عرفنا اليوم. وأنه لولا ثلاثة من المستشرقين الآثاريين، هم: كريستيان روبان، وجوزيف هاليفي، وإدوارد جلازر لما عرفنا عن آثارِ اليمنِ شيئا، وذات الشأن أيضا مع البابلية العراقية القديمة. عُرفت هذه الحضارات جميعا من المستشرقين قبل أن تُعرف من أبنائها.

2. المنطلق السياسي الروماني، متمثلا في تقديس القوة، الاحترام للقانون، الانضباط في الإدارة، الاعتزاز بالذات، الاستعلاء العرقي، فنون العمارة، والروح العسكرية القتالية. وعلى الرغم من أن هذه الإمبراطورية بعهديها الملكي والجمهوري قد أصبحت تاريخًا إلا أنَّ آثارَها لا تزالُ ممتدة إلى اليوم في المجالات التي أشرنا إليها، في الشرق والغرب على حد سواء. وحتى في بعض نصوص القانون، وخاصة قانون نابليون، والأغرب من ذلك أن بعض المستشرقين قد عزوا بعض تعاليم الفقه الإسلامي التي أتى بها النبي محمد إلى التأثير الروماني في المشرق، وقبل ذلك اتهام معارضي محمد من مشركي مكة بأن القرآن الكريم من تأثيرات «الرومي» الذي كان يجالسُ محمدًا، وقد نزل القرآن داحضًا لادعائهم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ ١٠٣﴾

ولم تكن النازية في القرن العشرين في ألمانيا إلا البذرة الدفينة منذ قرون غابرة، نبتت على يد هتلر لا أكثر. ومن باب أولى إذن: الفاشية الإيطالية وارثة المجد الروماني، بقيادة موسوليني؛ بل حتى فلسفة القوة لدى فوكو ونيتشه وفرويد. فالأخير على «علميته» وغزارة فكره، وعلى عمقه الفلسفي إلا أنه ظل رهين المعتقد السائد في البيئة التي عاش فيها من أن الإنسان الأبيض أفضل من الأسود، وأنه القائد الذي ينبغي أن يسود. إنها نزعاتٌ في اللاوعي الجمعي تجلت أفكارا حائمة في فلسفات هؤلاء الذين يختزلون ـ في الواقع ـ فلسفة وعمق تاريخهم وموروثهم، أدركوا ذلك، أم لم يدركوا..!

إنّ التوحش الأوروبي في استخدام القوة المفرطة امتدادٌ رومانيٌّ متجذرٌ في النفسيّة الأوروبية على تمدنها، وبقليلٍ من التأمل في طبيعة الحروب الأوروبية نجد أن آلة الموت تحصد أكبر قدر ممكن من البشر في أقل وقت ممكن من الوقت، خلافا لما هو عليه الأمر في الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط، تطول الحروب لسنوات وربما لعقود، وقتلاها لا يتعدى ـ في الغالب ـ قتلى معركة شهر واحد في أوروبا. «حروب القرن العشرين» أنموذجًا..!

ومؤخرا كشفت حرب روسيا/ أوكرانيا للعالم طرفًا من هذه المعتقدات القديمة التي لا تزال جزءًا من عقيدتها النفسية. ولا ندري حتى الآن ما الذي ستؤول إليه فصول المرحلة القادمة منها.

3ـ المنطلق اللاهوتي المسيحي وإن كان هذا المنطلق هو أضعف المنطلقات الأربعة، بحكم التجربة السيئة التي قدمتها الكنيسة خلال ما عرف بفترة العصور الوسطى، أو العصور المظلمة، وبحكم أن الإنجيل شرقي الهوى والمنشأ أساسًا، ومع هذا فإنّ القيمَ الروحيّة لا تزال عابقة

في أرجاء المكان، ومعها أيضا بعض القيم الإنسانية التي تجلت في فلسفة الانسانويات الحديثة خلال القرن العشرين، ومنطلقها الكتاب المقدس، أو جزء من ذلك على الأقل، إضافة إلى قيمة الوحدانية الإلهية، وقيم العطاء، والمحبة والتسامح التي تُنسبُ إلى يسوع. وهو أمر طبيعي أن يكون للدين حضوره الروحي في وجدان أي أمة من الأمم، ويساهم بصورة ما في تشكيل سلوكها وثقافتها؛ علما أن الحالة الدينية اليوم من منظور الدولة الأوروبية غير ما كانت عليه قبل ثلاثة قرون على سبيل المثال؛ حيث أصبحت النخبة الاستراتيجية تنظر إليه كبعدٍ محوري في السياسة العامة، سواء الداخلية لها أم الخارجية، خاصة وموضوع العلمانية لم يُحسم بصورة نهائية حتى الآن مع علاقته بالدين، ففي ألمانيا مثلا يوجد الحزب المسيحي «الاتحاد الديموقراطي المسيحي»، معترفًا به من الدولة، ويمارس نشاطه بصورة طبيعية. وكل ما حصل في أوروبا ليس فصل الدين عن الدولة؛ بل فصل الكنيسة فقط عن الدولة، الكنيسة بما هي أحد مفردات الدين ووجهه غير الإيجابي الذي ساد لفترة طويلة في أوروبا، وليس الدين بما هو منظومة قيميَّة وروحية وأخلاقية. المشكلة لا تكمنُ في الدين، إنما في العصبة أو الجماعة التي ترى نفسها وصية على الدين، كما هو الشّأنُ أحيانا مع العُصبويات أو أخدان الحكم في البلدان التي ترى نفسها ديموقراطية؛ حيث يرون في أنفسهم أنهم أوصياء على الديموقراطية، وباسم الديموقراطية يرتكبون المجازر ويزهقون الأرواح، ويقتلون الشعوب، فليس كل ديموقراطية هي قابلة بالآخر، أو متعايشة مع نقائضها، والدليل على ذلك سقراط نفسه الفيلسوف الأول الذي ضاق بأفكاره الديموقراطيون أنفسهم، فأعدموه،

في المجتمع الجمهوري الديموقراطي، لا لأنه استحق القتل، إنما لأنه كان صاحب رأي مخالف للمعتقدات السائدة حينها.

لقد صبغت المسيحيةُ وجدانَ وثقافة الإنسان الغربي خلال سبعين جيلا وأكثر، بمن في ذلك من ينتقدها، أو يزدريها؛ وظهرت حينا في صورة المتفلسف، وتارة أخرى في صورة المتصوف، وتارات كثيرة مثلت ملجأ حتى للمزايدة والدعايات السياسية لدى كبار السّاسة الذين يتظاهرون أمام جمهورهم بحب يسوع، وأخلاق الفادي..!

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المنطلق هو المنطلق الرئيس، إن لم يكن الأوحد الذي تتلاقى فيها روح الشرق مع عقل الغرب.

4. المنطلق الحداثي المعاصر، ينزعُ هذا المنطلق في أصوله الأولى إلى حركة التنوير الأوروبي في القرن السادس عشر الميلادي، التي دشن انطلاقتها الأولى المصلحُ الديني الألماني مارتن لوثر الذي ألغى لوائح الكنيسة من الداخل، وأطاح بالمرجعية البابوية المهيمنة على الدين، وأعاد الناس إلى روح الإنجيل مباشرة بلا وسيط يمنحُ صكوك الغفران لمن شاء، ويمنعها عمن يشاء، وأخضع الكنيسة للدولة، وقد كانت الدولة قبل ذلك خاضعة للكنيسة، في أسوأ حكم ثيوقراطي طاغوتي. إلى جانب مصلحين آخرين، نادوا بفلسفة جديدة، تتضمن فيما تتضمنه من قيم التحرر والانطلاق واستعادة الهوية والتأكيد على الذات والإيمان بقدرات الفرد، وتقديس الحريات المدنية والسياسية، هذه كلها قيم حديثة تشكلت من وحي حركة التنوير الجديدة، عززت فيها الثورات الحديثة التي اشتعلت في أرجاء أوروبا روحَ التحدي والحفاظ على المكتسبات.

وتجدرُ الإشارة هنا إلى أن أسسَ النهضة الأوربية بشكل عام ليست مقطوعة الصلة في جوهرها عن المنابع الأولى للحضارة الإسلامية التي سبقتها بقرون، وكثيرون من مفكريهم لا ينكرون ذلك، إذ بنوا على ما وصلهم واستفادوا منه في مجال العلوم التي اكتملت مبادئها وأصولها في الحضارةِ الإسلاميّة سابقا، وكان الشأنُ أن طوّروا منها، وواصلوا ما كانت قد توصلت إليه، ومن يقرأ فلسفة الإصلاحي الكبير مارتن لوثر يجد أنه قد تأثر حتى ببعض الجزئيات اليسيرة في الفكر الإسلامي، في بعض التفاصيل التي كانت موضع جدلٍ بين المعتزلة وأهل الحديث «السلفيين» في القرن الرابع الهجري وما بعده، كقوله بفكرة التعطيل المعتزلية: « يعلمنا الكتابُ المقدسُ أنَّ يدَ الله ليست مكانًا خاصا.. إنما هي قدرة الله الفائقة..».!! هذه واحدةٌ من كبرى المسائل الخلافيّة بين المعتزلة وأهل الحديث من قبل ظهور مارتن لوثر بقرون..! وهكذا نطقَ لوثر حرفيا..!

والواقع أن التأثر الغربي الشرقي لم يبدأ بالحضارة الإسلامية فقط؛ بل من التاريخ القديم، فقد قامت اليونان باقتباس العلوم ونقل الحضارة والميثولوجيا، وأخذت الأبجدية الفينيقية والكتابة من الشرق، ثم لونتها بلون أثينا وطورت منها، وصدرتها بعد ذلك إلى أنحاء العالم.

ومع مطلع القرن الواحد والعشرين عادت قيم الإنسانويات تتعزز من جديد عند البعض، بنظرة أوسع للعالم الجديد، من منطلق المسؤولية المشتركة بين الجميع، إنما لا تزالُ هذه الدعواتُ خجولة حتى الآن، ولما تتشكل كظاهرة قوية فاعلة ذات تأثير مباشر على صناعة القرار السّياسي؛ لكنها في تزايد، وإن كان هذا التزايدُ بطيئا.

والواقع أنَّ المبررات الموضوعية نحو عالمٍ أكثر إنسانيّة وأكثر وعيًا بذاته الكوكبيّة يتجلى اليوم في مخاطر الجريمة المُعولمة، العابرة للحدود، الحروب النووية، التلوث البيئي، والتهريب، الهجرات غير الشرعية، الأمن السيبراني وأمن المعلومات، وغيرها. هذه قضايا جديدة، لها أبعادها ومخاطرها، وجميعها يقتضي عالَما أكثر توحُّدًا، وأكثر مسؤولية بذاته، مستشعرا أخطار التكنولوجيا وسلبياتها كما يستشعر فوائدها وإيجابياتها. هذه أصواتٌ جديدة، ليس أمامها إلا أن تتحول إلى واقع عملي، وإلا فالكوارث سيدة المستقبل..!

التصوف.. النشأة الأولى

لا يُجمع الباحثون والمؤرخون في شؤون التصوف على زمان ومكان بعينه نشأت فيه ومنه الصوفية لأول مرة، وذلك؛ نظرًا لتعدد أشكاله، وتباين وجهاته، فبعضهم يرى أن التصوف نشأ لأول مرة في بلاد الهند، وفريق ثانٍ يرى في بلاد فارس، وفريق ثالث في الغرب، مشيرين إلى نظرية الفيض الأفلوطيني، وآخرون ينسبون ذلك إلى بلاد الإسلام، لارتباط التصوف بالدين الإسلامي، غير أن الدلالات الأكثر وضوحا ـ كما نرى ـ تشير إلى أنّ الهندَ هي بلدُ المنشأ الأول للصوفية، قبل نشوء التصوف في اليهودية والمسيحية والإسلام، وقبل البوذية والزرادشتية والمزدكية؛ وقبل التصوف الفارسي أيضا؛ إذ عَرف الهندوسُ الهنود وكذا البوذيون التصوفَ من وقتٍ مبكر، ومارسوه عمليًا قبل أن يتحولَ إلى تصوفٍ نظريٍ فلسفي، كما سنرى..

التصوف الهندي

باستقراء الدوافع والأسباب الأولى للتصوف في الهند، في نشأتها الأولى نجدها تقترب إلى حد كبير من الدوافع في الفكر الإسلامي، وإن كانت تختلف عنها في بعض المعالم والمظاهر، إلا أن ما يوحّد المدرستين. الهندية والإسلامية. أن التصوف لديهما ابتدأ سلوكا ثم تطور إلى فلسفة، خلافا لما هو الشأن في الغرب، وتحديدا لدى المسيحية وأيضا لدى الفرس فقد عُرف ابتداء بكونه فلسفة أكثر منه سلوكا؛ أما لو تأملنا في التصوف معالما وأهدافا في مراحله اللاحقة عند المسلمين فسنجده قد أضاف إلى بُعديه

السابقين بُعدا ثالثا، وهو البعد السياسي، وتلك إحدى المفارقات العجيبة الغريبة، ولا عجب ولا غرابة أصلا في عالم السياسة وعوالمها..!

من وقت مبكر مارسَ الهنودُ التصوفَ كسلوك، أولا، ففلسفةٍ ثانيا، حتى أن نظرية «وحدة الوجود» التي ينسبها البعضُ لابن عربي الصوفي المسلم هي نظريّة هنديّة براهميّة، نقلها من الفارسية عن الهندية إلى الفكر الإسلامي أبو يزيد البسطامي، كما أشار إلى ذلك المؤرخ البيروني، وهي نظرية شاعت عند الفرس منذ العهد الساساني، ولها صلتها الكبيرة بفكرة الحلول المنسوبة للصوفي المسلم الحلاج البيضاني الفارسي، من قبله، وسماها البعض «الفناء» أو «التفاني» والتي ترتبط فكريا وروحيا بالنيرفانا الهندية البوذية، ولم تختلف عنها إلا في بعض الطقوس البسيطة، مع أن هناك من ينفي التواصل، وإن أثبت الصلة، أي أن العلاقة بينهما جاءت عرضا على غير تعمد أو نقل، واتصال على غير تواصل، باعتبار التصوف أصلا حالة وجدانية تذوقية شعورية، أساسها النفس الإنسانية، بصرف النظر عن أي دين أو مذهب، فالمجاهدة الوجدانية والرياضة الروحية واحدة، وقد يلتقيان دون اتصال جماعة بجماعة، وهو ما يعني وحدة التجربة الصوفية التي لا تعرف الحدود الجغرافية، وإن اختلفت طقوسها من بلد إلى آخر.

يقول غاندي الزعيم الهندي المعروف، متحدثًا عن تجربته الخاصة في الحياة: إن الهدف الذي أرغبُ في تحقيقه، والذي كنت أسعى وأتوق إلى تحقيقه على مدار هذه الثلاثين عاما هو إدراك الذات، فأرى الإله وجها لوجه.

وفي مذكراته، ذكر أنه كان نباتيًا، وأنه حرم على نفسه اللحم، قبل أن

يذهب إلى الدراسة في بريطانيا، وأيضا بعدها. ليس اللحوم هي التي حرمها على نفسه فحسب؛ بل وحتى البيض والسمك، ملتزما بقَسَمِه لأمه؛ حيث أخذت عليه قسما مقدسًا لدى الكاهن ألا يقرب ثلاثة أشياء: اللحوم والخمر والنساء؛ مشيرا إلى أن هذا المعتقد لازمه في بريطانيا لا في الهند. وقد ظل ملتزما به؛ لأن معتنق الدين الجديد أشد حفاظا عليه من حماسة من ولد على الدين نفسه، كما يقول، كما أنه قد أسس جمعية خاصة بالنباتيين في بريطانيا أثناء إقامته فيها للدراسة.

وقد ظهرت النباتية لدى بعض طوائف اليهود، وعند المسيحية «البندكتية» كما هو أيضا عند المانوية والمزدكية الفارسيتين، وأيضا لدى الهندوسية والبوذية الهنديتين. وعند بعض فلاسفة اليونان، كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وإقليدس، فكل هذه الأديان والطوائف والجماعات اشتهر فيها النباتيون، وفي الإسلام «تنبتت» بعض من الصوفية، لا لأن الإسلام قد أمر بـ«الترهبن» وترك الملذات ووجّه بالنباتية؛ بل لتأثر بعض الأشخاص بتلك الأديان والثقافات الوافدة. وهو ذات الشأن تماما مع اليهودية والمسيحية التي لا تلزم نصوصها الدينية أحدا أن يكون نباتيا، ومن ترك اللحوم منهم فتركه يعود إلى المنزع النفسي بالدرجة الرئيسة، لا إلى أي توجيه ديني. وقد أيد هذه الفكرة من الفلاسفة المعاصرين ليوناردو دافينشي، نيوتون، جان جاك روسو، ليو تولستوي، المهاتما غاندي، ألبرت آينشتاين وغيرهم، مع الإشارة هنا إلى أن التحريم لدى البعض نابع من فلسفة أخلاقية روحية، فيما المنع لدى البعض الآخر آتٍ من قبيل التطبب، واتباع الحمية الغذائية.

التصوف الفارسي

التصوف الفارسي قديم قدم الحضارة الفارسية نفسها، عرفته بلاد فارس من وقت مبكر، غير أن هذا القدم نفسه لا يعني عدم تأثره بالتصوف الهندي أو الصيني، مهما كان الطابع الفارسي محافظا على خصوصيته «العرفانية» التي اشتهر بها لاحقًا، باعتبار التصوف الفارسي إلى الفلسفة أقرب منه إلى السلوك الزهدي، أي أنه فكر وفلسفة أكثر منه زهدا وتقشفا، خلافا لما عليه الحال لدى الهنود أو المسلمين؛ ولذا فالعرفان في الشعر الفارسي يكاد يوازي المدح في الشعر العربي من حيث الكثرة أو الغزل، وذلك للميول «العرفانية» التي تطبع رجالات الفكر من شعراء وأدباء وفلاسفة هناك؛ ونتيجة لهذه الكثرة الملفتة فهناك من رأى أن التصوف فارسي المنشأ، ومن بلاد فارس عبر إلى البلاد الإسلامية بعد الفتوحات، وأثناء احتكاك الحضارة الإسلامية ببلاد فارس.

والواقع أن كثيرا من أعلام المتصوفة كانوا فعلا من الفرس كمعروف الكرخي وإبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي وأبي يزيد البسطامي وحاتم الأصم وسهل التستري والحلاج والسهروردي وأبي حامد الغزالي، وابن خصرويه، والرازي وغيرهم، على الرغم من بروز صوفيين كبار غير فرس، كابن الفارض المصري أو ابن عربي الأندلسي الذي كان له تأثيره الأكبر على الصوفية لاحقا، على المستويين العربي والفارسي؛ بل وغير العربي على حد سواء، وتربع طويلا إلى اليوم على عرش الصُّوفية، كما تربع ابن تيمية على عرش السلفية، ويعتبر المتصوفون الفرس هم حاملو رسالة ابن عربي الأندلسي وناشرو فلسفته أكثر من حملهم ونشرهم لفكر وثقافة الإمام

الغزالي الفارسي نفسه.! ذلك لأن تصوف الغزالي «علمي» فقهي؛ وهو ما لا يتوافق مع الفكر الفارسي أساسا؛ أما تصوف ابن عربي فعرفاني فلسفي؛ والأخير أقرب إلى المجتمع الفارسي بثقافته وفكرة وفلسفته، فيما الغزالي أقرب إلى المجتمع العربي الذي شاع فيه تصوفه أكثر من ابن عربي، ولم يكن السَّهروردي ثم صدر المتألهين ثم جلال الدين الرومي إلا التمثيل الأبرز لابن عربي في بلاد فارس؛ بل لقد كان عرفان الملا صدر الدين الشيرازي مزيجًا من حكمة الإشراق وعرفان ابن عربي.

لقد تأثر التصوف الفارسي بالتصوف الهندي ابتداء، وعرف الفرس «النيرفانا» الهندية قبل أن تُعرف لدى العرب المسلمين من خلال ما أسموه: «الفناء» أو «التفاني» والتي يصاحبها عادة القيام بعمل ما من الخوارق للعادة، وهي من تأثيرات الثقافة البوذية الهندية. وقد ذكر المستشرق الإنجليزي في مجال التصوف نيكلسون أن فكرة الفناء التي وجدت في بلاد فارس كانت متأثرة بالأفكار الهندية.

خراسان والتصوف

تعتبر خراسان من بلاد فارس معقل التصوف الفارسي منذ ما قبل الإسلام فما بعده، وأغلب فلاسفة الفرس كانوا من خراسان، كما أنها أيضا معقل القومية الفارسية المتعصبة، وقد استعصت على الذوبان في الثقافة الإسلامية الوافدة بعد الفتح الإسلامي، فحافظت على لغتها وعاداتها وتقاليدها، كما لم تحافظ أي مدينة أخرى على ذلك، وكانت ترى نفسها حامية حمى الهُوية الفارسية؛ إذ لم تنس الهزيمة في موقعة البويب ولا القادسية، ولم تنس أيضا ما فعل مصعب بن الزبير بأهل خراسان في حربه

مع المختار بن عبيد الثقفي؛ لذا ناوءت خراسانُ الأمويين وواجهتهم في نهاية عهدها، متحالفة مع العلويين، الفصيل الإسلامي المعارض للأمويين يومها، تحالفا لا عن ولاء عقدي؛ بل كتكتيك سياسي، هدفه القضاء على الأمويين، المتعصبين لجنسهم العربي. وكان لها دورٌ كبيرٌ في إسقاط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية على أمل أن تتخلص منها فيما بعد، وكان أبو مسلم الخراساني من أبرز حلفاء الدولة العباسية حين قامت، ثم قتله الخليفة أبو جعفر المنصور بعد ذلك. وقد نظم الشاعر بشار بن برد واحدة من أشهر قصائده الشعرية في هذه الحادثة، ومطلعها:

أبا مُسلمٍ ما طُولُ عَيْشٍ بِدَائمِ ولا سَالِمٌ عما قليلٍ بسالِم
على المَلِكِ الجَبَّارِ يَقْتَحِمُ الرَّدى ويصرعهُ في المأزق المتلاحم
كَأَنَّكَ لم تَسْمَع بقتل مُتَوَّج عظيمٍ ولم تسمع بفتك الأعاجم

ولأنها مُنيت بهزيمة وراء هزيمة من العرب الفاتحين فقد مالت إلى التزهد والتصوف بعد ذلك، مفضلة إياه على المقاومة والقتال الذي لا طائل من ورائه، فالمجد يومها كان للعرب، في الوقت الذي كانت شمس فارس في أفول. وقد أفَلت شمس الساسانيين وخفت نجمها؛ لكن أمشاج الهوية وروح القومية ظل متقدًا في نفوسهم، كالجمر تحت الرماد؛ لأن الهويات العريقة ذات التاريخ المتأصل في القدم يصعبُ القضاء عليها مهما كان، فاتخذ الخراسانيون . حاملو مجد القومية الفارسية . من التصوف درعًا للبقاء، منزوين ومتوارين خلف التظاهر بالاستسلام وإعلان الولاء للدولة العربية الجديدة بنَفس فارسي هادئ وغير انفعالي، كما هي عادة الفرس.

ومن هنا ولد التصوف، كما ولد التشيع أيضا، فكان أبرز رجالات

التصوف الفارسي من خراسان، ناهيك عن النزعة المتجذرة من سابق، كنتاج لمختلف الثقافات والأفكار المتلاقحة هناك، ومن أشهر هؤلاء إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي وأبو زيد البلخي وأبو يزيد البسطامي وابن سينا وجابر بن حيان والخوارزمي ونصير الدين الطوسي وعمر الخيام والإمام الغزالي والقشيري والرازي ومالك بن دينار، وغيرهم الكثير من متصوفة وغير متصوفة.

التصوف اليوناني

عرف اليونانيون التصوف من وقت مبكر قبل المسلمين، إلا أن التصوف اليوناني يبدو مغايرًا للتصوف الهندي وأيضا للتصوف الإسلامي؛ إذ يبدو تصوفا فلسفيا، لا تصوف زهد وتقشف في غالبه، وإن كان فيه بعض ملامح الزهد والتقشف.

ويرجع الباحثون التصوف اليوناني إلى أرسطو: 384 . 323 ق.م. الذي أشار إلى أن الله هو السبب الغائي الذي ينجذب إليه العالم بالضرورة طلبا للكمال، لأن الله وحده هو المنزّه عن كل ألم أو عاطفة، وعن كل رغبة أو حاجة. وعلى هذه الفلسفة اليونانية قبل الميلاد تأسست الفلسفة المسيحية لاحقا بعد الميلاد على يد أفلوطين الذي دعم فلسفته الإلهية بالشواهد السابقة من الفلسفة القديمة، ومؤدى هذه الفلسفة أن الله هو الأول والآخر، وهو القيمة غير المتناهية والعلة التي لا علة لها، منه يصدر كل شيء ويفيض، وعلى الإنسان أن يتخلص من شهوات الحياة، لتمارس الروح رياضة التأمل حتى يتم لها الاتصال بالملأ الأعلى، وذلك هو غاية الغايات، فالإنسان روح بالمقام الأول والأخير، وما الجسد إلا مستودع لهذه الروح التي

ينبغي أن تتسامى فوق مادية البدن.

ومن أهم الأفكار التي كان يقول بها أفلوطين، وهو صاحب المدرسة الأفلوطينية الحديثة بمصر ذات المنابع اليونانية والغنوصية والهرمسية والزرادشتية واليهودية والبوذية والمسيحية نجد نظرية الفيض وانبثاق النور والتجلي وغير ذلك. حتى المدرسة الفيثاغورية قالت بذلك من قبله بقرون.

ولا شك أن المسلمين قد تأثروا بهذا التصوف، بما يكتنزه من فلسفات إلهية وروحانية، كما تأثرت به المسيحية من قبل، وشكل اتجاها لدى المتصوفة المسلمين، خاصة متصوفة فارس الذين نحوا منحى فلسفيا أكثر منه منحى عمليا، وليس بعيدا أن يكون هذا الاتجاه أحد الروافد الفلسفية التي تأثر بها ابن عربي في الأندلس، حيث يغلب على تصوفه الفلسفة.

إن الأفلاطونية الحديثة هي أحد المصادر الأساسية للتصوف؛ بل إنها هي المصدرُ الأول بالنسبة للقائلين بوحدة الوجود والحلول بدءا من أبي اليزيد البسطامي وسهل التستري والترمذي الملقب بالحكيم ابن عطاء الله الأسكندري وابن سبعين وابن الفارض والحلاج ولسان الدين بن الخطيب وابن عربي والرومي والجيلي والسهروردي المقتول، وغيرهم. وأن هؤلاء أخذوا نظرية الفيض والمحبة والمعرفة والإشراق مع الآراء الأخرى التي تمسكوا بها عن الأفلاطونية المحدثة؛ لأن الثقافة اليونانية كانت هي الثقافة المسيطرة في الشرق منذ غزوات الاسكندر الأكبر، وزاد التأثر بعد ذلك بالفتوحات الإسلامية. وما فلسفات هؤلاء الذين ذكروا سابقا إلا امتداد لفلسفة أفلوطين الذي كان يقول بالاتحاد والحلول قبلهم بمئات السنين.

التصوف اليهودي

من نافلة القول الإشارة إلى أن التصوف واحدة من الشعائر والطقوس المشتركة بين الشرائع السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، بل وبعض الفلسفات الأرضية الأخرى كما أشرنا سابقا، على الرغم من مادية الشريعة اليهودية، وابتعادها نسبيا عن الجانب الروحي؛ وقد مارسه اليهود الأوائل، بصورة تقارب ما كان عليه الشأن لاحقا عند المسيحيين أو المسلمين، وتطورت مدارسه ومذاهبه كما تطورت لدى الشرائع الأخرى.

وقبل أن يردد الصوفيون المسيحيون أو المسلمون السماع والمديح على إيقاعات الزمر والعود والدف الذي اشتهروا به في حلقاتهم كان اليهود أيضا قد فعلوا ذلك في حلقاتهم وزواياهم، انطلاقا من تعاليم كتابهم المقدس «العهد القديم» الذي يأمر أتباعه بقوله:

1. هللو يا غنوا للرب ترنيمة جديدة، تسبيحته في جماعة الأتقياء
2. ليفرح إسرائيل بخالقه. ليبتهج بنو صهيون بملكهم
3. ليسبحوا اسمه برقص. بدف وعود ليرنموا له
4. لأن الرب راض عن شعبه. يجمل الودعاء بالخلاص
5. ليبتهج الأتقياء بمجد، ليرنموا على مضاجعهم
6. تنويهات الله في أفواههم، وسيف ذو حدين في يدهم
7. ليصنعوا نقمة في الأمم، وتأديبات في الشعوب
8. لأسر ملوكهم بقيود، وشرفائهم بكبول من حديد.

وقد ارتبط التصوف بجماعة «القبالاة» اليهودية التي تعتبر جماعة

باطنية تأويلية يهودية؛ بل إن لفظة «الحريديم» اليهودية .وهي تطلق على إحدى جماعاتهم .تعني: الخائف/ الوجل، أي جماعة المتقين الذين يراقبون الله أكثر من غيرهم. ويطلق عليهم خصومهم اليهود المتزمتون أو المتطرفون، وهي تشبه أرثوذكس المسيحية، وكذا «الحسيديم» أطلقت على الجماعة الصوفية اليهودية في ألمانيا في القرن الثاني عشر الميلادي، ثم في بولندا في القرن الثامن عشر، والحريديم والحسيديم كلتاهما مرتبطتان بالقبالاة اليهودية التاريخية.

وقد مارست هذه الجماعة التنبؤ والكهانة والتنجيم حتى صار ثقافة سائدة لدى اليهود قديما، ومنهم تسربت هذه الثقافة إلى الثقافة الصوفية الإسلامية الذين يعيشون جزءا من التهويمات الروحية والإغراق المفرط في الخيال والتأمل، وكانوا يعتقدون ألا أحد يستطيع فك طلاسم السحر والعقد والنفث إلا أحبارهم النورانيين فقط دون غيرهم، وهو ذات المعتقد الذي تسرب إلى الصوفية الإسلامية بأن للشيوخ قدرات خارقة فوق العادة على كشف الحجب وفك الطلاسم وإزالة العقد والسحر. وكما تستخدم الكابالاة اليهودية الحروف والأعداد والرموز في السحر، كذلك تستخدم الصوفية في الإسلام نفس الوسيلة، ويسمي لديهم قسم علم الأوفاق والطلاسم.

التصوف المسيحي

تناولنا آنفًا التصوف اليهودي، وكيف انسربت بعضُ خيوطه إلى التصوفِ الإسلامي، ونتناول هنا التصوفَ المسيحي وكيف تأثر بالتصوف اليهودي وأثر في التصوف الإسلامي، فلم تكن الثقافة اليهودية هي التي انساح جزءٌ منها إلى الذهنية الصوفية وشكَّلَ جزءا من وعيهم وثقافتهم؛ بل والمسيحية

أيضا، وربما كان التأثير المسيحي في الصوفية الإسلامية أكثر، نظرا لكثرة الاختلاط بين الطرفين، ولكون المسيحيين أقرب إلى المسلمين من اليهود؛ خاصة أن الإسلام انتشر في بلاد الشام والصوامع والبيع والكنائس تملؤها، في فترة تراجع وانحدار حضاري مسيحي غربي، انحدر معه كل شيء بما في ذلك الفكر والثقافة، ومنها الفكر الديني المسيحي نفسه، فكانت الرهبنة الصوفية امتدادا واضحا للرهبنة المسيحية بأغلب طقوسها، من لبس البالي من الثياب إلى العزوف عن الملذات والزواج والاختلاط بالناس، وأيضا تقديس الزعامات من المشايخ والأولياء والمقامات، حتى إن العلم لم يؤخذ إلا من «شيخ الطريقة» دون سواه، ولا قيمة لأي علم لم يأت من يد شيخ الطريقة.

ذات الشأن نفسه في المسيحية التي يحتكر رجالها وحدهم حق تفسير الكتاب المقدس وشرحه للناس، وفق رؤاهم وتصوراتهم الخاصة. وكل ذلك لتحقيق فكرة «الخلاص» المسيحية، التي يقابلها «النجاة» في الدنيا والآخرة في الفكر الصوفي. هذه كلها من الثقافة المسيحية التي مارسها المتصوفون، على تفاوت بينهم، بل إن حب الفقر والتوكل الذي هو في حقيقته تواكل، مأخوذ من العهد الجديد الذي جسده رهبان المسيحية. ففي إنجيل لوقا:

طُوبَى لَكُم، أَيُّهَا المَسَاكين، لأَنَّ لَكُم مَلَكُوتَ الله.

طُوبَى لَكُم، أَيُّهَا الجِيَاعُ الآن، لأَنَّكُم سَتُشْبَعُون. طُوبَى لَكُم، أَيُّهَا البَاكُونَ الآن، لأَنَّكُم سَتَضْحَكُون.

طُوبَى لَكُم حِينَ يُبغِضُكُمُ النَّاس، وحِينَ يَرْذُلونَكُم، وَيُعَيِّرُونَكُم، وَيَنْبِذُونَ آسْمَكُم كَأَنَّهُ شِرِّيرٌ مِنْ أَجْلِ آبْنِ الإِنْسَان. افْرَحوا في ذلِكَ اليَومِ وَتَهَلَّلُوا، فَها

إِنَّ أَجْرَكُم عَظِيمٌ في السَّمَاء، فَهكَذا كَانَ آبَاؤُهُم يَفْعَلُونَ بِالأَنْبِيَاء.

ولكِنِ ٱلوَيْل لَكُم، أَيُّها الأَغْنِياء، لأَنَّكُم نِلْتُمْ عَزاءَكُم.

أَلوَيْلُ لَكُم، أَيُّها المُتْخَمُونَ الآن، لأَنَّكُم سَتَجوعُون. أَلوَيْلُ لَكُم، أَيُّهَا الضَّاحِكُونَ الآن، لأَنَّكُم سَتَحْزَنُونَ وَتَبْكُون. أَلوَيْلُ لَكُم حِينَ يَمْدَحُكُم جَمِيعُ النَّاس، فهكذَا كانَ آبَاؤُهُم يَفْعَلُونَ بِالأَنْبِياءِ الكَذَّابين.

يقول الشيخ محمد الغزالي عن المسيحية وتسامحها: إن النصرانية من حيث هي دين سماوي تتضمن من العقائد والعبادات ما يجعلها ينبوعا جياشا لأزكى العواطف وأشرف المسالك؛ فالإنجيل أنزله الله هدى ونورا، وعيسى . عليه السلام . جاء مزودا بطاقة كبرى من الروحانية والسماحة، تمحو ما تركه اليهود في جو الأرض من جشع وقسوة وأثرة، وتلامذة عيسى المخلصون كانوا أناسا طيبين مترفعين على شهوات الحياة، مقتفين لآثار نبيهم في حبه للناس وسعيه لتخفيف الشر وتحقيق الخير، وقد وصفهم القرآن بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾. بيد أننا لا نعرف ديانة لانت للأفكار الدخيلة وظلت تتشربها مثل المسيحية».

هذه الرقة واللين في بنيتها التعليمية والروحية أفضى بها إلى تقبل كثير من الأفكار الوافدة منذ فجرها الأول من خلال ثقافتين اثنتين:

1. الثقافة اليهودية السائدة آنذاك، وما انضاف إليها من تعاليم القديس بولس الرسول الذي يعتبره البعض المؤسس الأول للمسيحية، وكان يهودي المعتقد.

2. الثقافة الوثنية السائدة من خلال وثنية روما التي كانت تحكم الغرب

والشرق آنذاك، وكانت وثنية الديانة، وزاد الأمر سوءا حين تم اعتناق المسيحية من قبل الامبراطورية الرومانية على يد قسطنطين الأكبر 306 .337م؛ إذ كانت المسيحية في حالة من الضعف وكانت روما في حالة من القوة بثقافتها الوثنية السائدة، فأفضت المعادلة ـ كما قيل ـ إلى «توثين» المسيحية، لا «مسيحة» الوثنية..! علما أن جزءًا من هذا «التوثين/ التوثن» إيجابي، يتمثل في عقلنة المسيحية من خلال الفلسفة اليونانية التي حملتها روما من أفلاطونية وأرسطية ورواقية، وقد كانت الأساطير تملأ الفكر المسيحي قبل ذلك.

هذا إضافة إلى الثقافات الأخرى من فارسية وهندية ثم إسلامية بعد ذلك، ومن هنا كانت المشتركات الثقافية بين أتباع هذه الأديان، فظهر متصوفة مسيحيون ميالين إلى الزهد والتقشف وترك مظاهر البذخ والراحة، وأيضا التوكل/ التواكل والسياحة في الأرض.. إلخ، كما حصل في الإسلام بعد ذلك.

جاء في إنجيل متّى: لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ؟

أما حين نجد الصوفية الإسلامية تنادي بعدم التفكير بمعيشة الساعة القادمة من الغذاء والدواء والملبس، والرضا بالفقر، والاكتفاء بالعيش على ما يجود به الناس فإن ذلك لا يعدو أن يكون تطبيقا عمليا لما ورد في هذا النص من إنجيل متّى.

وفي كتابه «إحياء علوم الدين» أفرد الغزالي فصلا خاصا عن الفقر

وفضله والدعوة إليه، مستشهدا بالكثير مما سماها أحاديث نبوية تدعو لذلك. ويبدو أن تأثره الصوفي بما في الإنجيل من منطلق عدم التفريق بين رسل الله وكتبه أساسا، كما ذكر ذلك الفيلسوف زكي مبارك.

وكما كانت السياحة هواية المسيح وشغله الشاغل وهو يأكل من الشجر ويبيت حيث أظلم عليه الليل كانت كذلك بالنسبة للصوفية الإسلامية؛ بل إن السياحة أحد الأنشطة الروحية والرياضية معا التي يمارسونها.

وكما كانت الموسيقى والطرب مصاحبة للطقوس المسيحية، كما هو الشأن عند اليهودية، فقد كان الأمر كذلك بالنسبة للصوفية الإسلامية؛ حيث تبنوا في جلساتهم الدينية ما عرف بالسماع والتوشيحات والمدائح الدينية، مرفقة بالدف والطار والموسيقى وآلات الطرب؛ بل لقد توالدت بعض الفنون من بعضها، فتأثرت الصوفية الإسلامية بالصوفية المسيحية في جانب الفنون التشكيلية، من رسم ونحت وخط وتصوير ونحوه، ملأت جداريات الكاتدرائيات والكنائس المسيحية، كما ملأت اللوحات الفنية جدران الخوانق والمساجد ومجالس الذكر، ولن نكون مبالغين إذا قلنا أن الفن التشكيلي فن النحت والتصوير، وأيضا فن الخط العربي لم يشتهر على يد جماعة ما كما اشتهر على يد الصوفية البكتاشية تحديدا.

وقد اهتم بعضُ المتصوفين المسلمين بقصص عيسى بن مريم عليه السلام وتداولوها كثيرا، خاصّة تلك التي تعظم الزهد والورع والتقشف والتواضع، وجعلوها على لسانهم في أغلب مجالسهم، حتى ليبدو أن المسيح مثلهم الأعلى في هذه الخلال والمزايا، وتكاد تكون قصص المسيح لدى المتصوفة تحتل المرتبة الثانية بعد قصص الإمام علي بن أبي طالب، المثل

الأعلى لهم.

التصوف الإسلامي

من نافلة القول الإشارة إلى أن التصوف الإسلامي في منشئه الأساس كان رد فعل مباشر لحالة البذخ والترف المادي الذي ظهر في العصر العباسي، بسبب الثراء المالي الذي كسبه المسلمون من حركة التطور الجديدة، ومن الفتوحات، وبسبب حالة الازدهار الحضاري أيضًا التي كان يمر بها المسلمون، أي أنه عملية هروبٍ من مواجهة الواقع إلى عالم خاص من صنع الوجدان، والعيش فيه استيهاما؛ غير أن هذا لا يكفي تعليلا وحيدًا لبروز الظاهرة أو الفكرة في المجتمع الإسلامي، وإن كان هو الأساس، بدليل أنه قد تطور من الحالات الفردية والشخصية حتى صار تيارا وجماعة؛ بل تيارات وجماعات بعد ذلك، وانتعش أكثر مع تراجع حالة الرخاء المادي والرفاه الاجتماعي؛ ليس ذلك فحسب؛ بل حين عمدت السلطات السياسية والحكام إلى دعم الصوفية لاحقا كانت «الخانقاه» الصوفية وتكاياها حالة ملفتة من البذخ في العيش في مجتمع يعيش حالة التقشف والانتكاس المادي، وبالتالي لم يعد التصوف هنا زهدا، بقدر ما صار تزهدا، ولم يعد حالة دينية بقدر ما صار حالة سياسية، وإلى هذه الحالة أشار أحد الشعراء أيام مصر الأيوبية، كما ذلك المؤرخ المقريزي بالقول:

يا أهل خانقة الصلاح أراكم ما بين شاكٍ للزمان وشاتم

يكفيكم ما قد أكلتم باطلا من وقفها وفزتم بالسالم

كما تعكس لنا هذه القصيدة لشاعر صوفي في العهد العثماني من

الطريقة البكتاشية عن الحال الذي وصلت إليه هذه الجماعة ومثلها الجماعات الأخرى من التخمة، بدلا عن التقشف أيضا:

ما حاجة الدرويش في هذا العالم؟

إناء كبير من الأرز واللحم

وخبز ساخن وبعض الدسم.

ابن عربي ونظرية وحدة الوجود

نظرية وحدة الوجود هندية المنشأ، تسللت إلى كل الأديان السماوية والأرضية وإلى بعض الجماعات بعد ذلك، بما فيها الدين الإسلامي، ونسبَها البعضُ ـ خطأً ـ لابن عربي، كما نسبوا نظرية الاتحاد والحلول للصوفي الحلاج قبل ذلك، فيما هاتان النظريتان من الأفكار الهندية التي تسللت إلى الفكر الفارسي فاليهودي فالمسيحي فالإسلامي بعد ذلك. ولم يفعل الحلاج ثم ابن عربي من بعده أكثر من اعتناقهما والجهر بهما فقط، وإضفاء اللمسة الإسلامية عليها. مع الإشارة إلى أنّ الخليفةَ العباسي المقتدر بالله الذي عاصرَ الحلاج لم يتسامح معه فقتله، فيما لقي ابن عربي الحماية الكافية من الملك العادل الأيوبي آنذاك الذي كان متسامحًا تجاه الأفكار والفلسفات المخالفة.

وفكرة الاتحاد والحلول تعني أن الله قد حلَّ في جميع أجزاء الكون؛ في البحار والجبال والصخور والأشجار والإنسان والحيوان، أو بمعنى أن المخلوق هو ذاته عين الله تعالى.!

وابن عربي يرى واحدية الوجود، وأن كل الأشياء واحدة في جوهرها، حتى أن كل جزء من العالم إنما هو العالم كله. يقول في الفصوص عن خلق الله لآدم عليه السلام: فأنشأ صورته الظاهرة من حقائق العالم وصوره، وأنشأ صورته الباطنة على صورته تعالى.. وهكذا هو في كل موجود من العالم بقدر ما تطلبه حقيقة ذلك الموجود. أ. هـ ومن هنا كان التجلي الأبرز لنظريته ولمجمل فكره الذي عبر عنه شعرا في تلك الأبيات الشهيرة:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لـقد صـارَ قـلبي قـابلاً كلَ صُـورةٍ فـمرعىً لغـزلانٍ ودَيـرٌ لـرُهـبَـانِ
وبـيـتٌ لأوثـانٍ وكـعـبـةُ طـائـفٍ وألـواحُ توراةٍ ومـصـحـفُ قـرآن
أديــنُ بـديـنِ الحـبِ أنّى توجّـهـتْ ركـائبهُ، فـالحبُّ ديني وإيمَاني

تصوف ابن عربي إذن فلسفي، كما أن تصوف الغزالي فقهي/ علمي، وقبلهما تصوف الحسن البصري الزهدي السلوكي. وهذه هي أبرز المدارس والاتجاهات الصوفية التي تشكلت قديما؛ أما في فترة الخلافة العثمانية فقد برزت عدة طرق ومدارس صوفية، لعل أبرزها الصوفية البكتاشية التي وضع قواعدها وأسسها المؤسس الثاني «بالم سلطان» وهو من أمٍ مسيحية، تم تعيينه رئيسا للطريقة بفرمان سلطاني أيام بايزيد الثاني، سنة 1501م. «ويرجع البعض ما في البكتاشية من عقائد إلى أصول مسيحية، بناء على تأثر بالم سلطان بالمسيحية؛ فالأئمة الاثناعشر يقابلهم في المسيحية الحواريون أو التلاميذ. وشكل التقديس لـ: «الله . محمد . علي» التي تبنتها البكتاشية يقابله في المسيحية الثالوث، وغير ذلك من التعاليم كتفضيل العزوبية على الزواج وأيضا طقس الاعتراف بالذنوب بين يدي الشيخ.. إلخ.

ومثل ابن عربي في التصوف والرؤى يأتي جلال الدين الرومي الفيلسوف المتصوف في القرن السابع الهجري الذي يرى في نفسه ذاتا جامعة فوق كل الانتماءات الضيقة «لستُ مسلما ولا نصرانيا ولا يهوديا ولا زردشتيا. لست من الأرض ولا من السماوات، لستُ جسما ولا ورحا». مؤكدا في رؤية إنسانية أخرى:

بالمحبة تصيرُ الأشياء المرة حلوة
بالمحبة تصير الأشياء النحاسية ذهبية الصفات

بالمحبة تصير الأشياء العكرة صافية
بالمحبة تصير الآلام شفاء
وبالمحبة يحيا الميت.

ولعل فلسفته هذه من نظرته الواسعة أولا وتصوره للكون والحياة، كما تأتي من كثرة تنقلاته ما بين أواسط آسيا إلى بلاد فارس إلى العراق إلى تركيا، فهضم ثقافات هذه البلدان، وأجاد لغاتها، ومن هنا تشكلت فلسفته الجامعة.

وبحسب المفكر العراقي عبدالجبار الرفاعي: إن جلال الدين الرومي اشتق مذهبًا جديدًا في تأويل الدين ونصوصه، يمكن تسميته بمذهب العشق، مذهب تتغلبُ فيه الروحُ على القانون، ماهيته التراحمُ والمحبة، تتسعُ مدياته الإنسانية بنحوٍ يُحررُ البشرية من العدوان والتعصب، ويفتح آفاق التواصل والتفاهم بين مختلف المجتمعات. إنه عابرٌ للأديان والثقافات، ليس نفيًا للأديان أو مناهضة لها، وإنما هو تعبيرٌ عن المضمون العميق للأديان. إنه مرتبة متعالية من المعنوية والروحانية، تستوعبُ جوهر الأديان، وكأنه يحاكي ما يذهب إليه الشيخ محيي الدين بن عربي عندما يعبر عن ذلك بوضوح:

أدينُ بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

ومثل جلال الدين الرومي عماد الدين النسيمي، الصوفي الأذربيجاني في القرن التاسع الهجري الذي تعمق في فلسفات الشرق والغرب، متأثرًا بالحلاج أولا، فابن عربي، وغيرهما.

إن الفكر الصوفي ـ وفكر ابن عربي والنفري وجلال الدين الرومي منه على

وجه التحديد ـ يحيل إلى إنسان متصالح مع ذاته أولا، ثم متصالح مع الغير، إنسان قابل بالغير كيفما كان بأفق مفتوح على الجميع، متعدد الأنساق المعرفية التي تعمل على توسعة المدارك الإنسانية وصفاء مداراتها.

أخيرا.. يستطيع التصوف أن يمثل نقطة التقاء لجميع الطوائف والنحل، خاصة وفيه من قيم التسامح والقبول بالآخر ما ليس في غيره، شريطة ألا تدنسه السياسة بلوثاتها؛ أما إذا تخلله دخان السياسة فهيهات أن يثمر إلا السوء وشوك القتاد. يستطيع التصوف أن يجعل من مبدأ ابن عربي قيمة سلوكية وأخلاقية عليا تساهم في أنسنة هذا العالم المتوحش؛ لأن الأديان ـ والتصوف مشتركها الجامع ـ قائمة أساسا على الحب والتسامح ونشدان السعادة للجميع، ومرة أخرى:

لقد صارَ قلبي قابلاً كلَ صُورةٍ فمرعىً لغـزلانٍ ودَيـرٌ لـرُهبـَانِ
وبيـتٌ لأوثانٍ وكعبـةُ طائـفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآن
أدينُ بدينِ الحبِ أنّى توجّهتْ ركائبهُ، فالحبُّ ديني وإيمَاني

الفصل الثالث

التعليم والتربية..

نحو تأسيس مواطن كوني

في مفهوم التربية

لن نغوصَ هُنا في ماهيّات وتفاصيل التعريفات القديمة والحديثة للتربية، والتي ينطلقُ كلٌّ تعريفٍ منها من محدداته الذاتية أو الموضوعية الخاصة. هذا موضوعٌ آخر. يكفي التوقف عند تعريف منظمة اليونسكو لمعرفة التربية من أجل المواطنة العالمية، والتي تعتمدُ على إعلان ماستريخت ـ الاتفاقية المؤسسة للاتحاد الأوروبي بمدينة ماسترخت الهولندية في ديسمبر 1991م ـ بأنها التربية التي تفتحُ أعين الناس وعقولهم على حقائق العولمة، وتدفعهم للسعي لتحقيق عالم ينعمُ فيه الجميعُ بمزيدٍ من العدالة والمساواة وحقوق الإنسان.

والتربيةُ ـ بمناهجها التعليميّة ـ على وجه التحديد تُمثلُ أحدَ المدخلاتِ الرئيسيّة في الثقافةِ المتشكلة، والتي تصبغ شخصية الفرد وتوجه سلوكه.

ومن المهم اليوم وضع المحددات الرئيسية لعمليّة تربوية وتعليمية كونيّة، تنطلقُ من المشترك الإنساني، ولو في جزءٍ منها، اتساقًا مع المتغيرات الجديدة ومقتضيات العيش المشترك على الكوكب الواحد، في عصر العولمة. عملية تربوية تراعي المشترك الإنساني، بقدر ما تراعي الخصوصيّة القُطريّة. هذا ما يقتضيه قانونُ الأرض اليوم، أو قل قانون البقاء.

وثمة مدخلاتٌ عدة، تمثل منطلقات للبناء في هذا الإطار، كما فصلنا، من خلال المشترك الديني الجامع بكل مفرداته، وأيضا من خلال الفنون، باعتبارها لغة العالم، كما هو الشأن مع التربية والتعليم التي تمثل أهم

مدخلات المعرفة والتثقيف في حياة الفرد. وجميع هذه الركائز من المقدور عليها إذا ما وجدت الإرادة والإدارة، وإذا ما أدرك عقلاءُ العالم خسائرَ البشرية بسبب خطاب وثقافة الكراهية التي كانت واحدة من مدخلات التربية والتعليم في المراحل المبكرة من حياة الفرد.

وبما أنَّ حجمَ الدمارِ كان مهولا في السّابق في عصرِ المواطن القُطري أو القروي فإنّ نسبةَ هذا الدمار سيتضاعفُ أكثرَ مع عصرِ الفضاء المفتوح والقريةِ الواحدة؛ لأن الزّمنَ يتطور، ومعه تتطورُ آلة السّلام، كما تتطورُ أيضًا آلة الجريمة. فعلى سبيل المثال كان القرنُ العشرون قرنَ المكتشفات والطفرة العلميّة في مختلف المجالات؛ ومع هذا لم حصدت آلة القتل فيه وحده ما لم تحصد في قرونٍ قبله، إذ شهد هذا القرنُ حربين عالميتين، وعشرات الحروب الأخرى بين الدول، إضافة إلى مئات الحروب الأهلية والداخلية. وزاد الأمرُ تعقيدًا أكثر قيام دول نووية، باستطاعة أي دولة أن تبيد هذا العالم.

اللاهوت المدرسي

إذ نعيشُ على كوكبٍ واحد..

وإذ تجمعُنا مصلحةٌ مشتركة..

وإذ يضمُّنا مستقبلٌ واحد..

وإذ تواجهُنا مهدداتٌ واحدة..

وإذ توحدُ بيننا كل هذه الروابط.. فما مبرراتُ الخلافِ والتقاطعِ إذن؟!

تساؤلاتٌ عامة، كمدخلٍ للإجابة عن سؤالِ القرن الجديد الذي قطعنا فيه خُمسَه حتى الآن، ولا زلنا في بعضِ الجوانبِ نجترُّ بين ثنايا تفكيرنا بعضًا من أوهامِ ما قبل القرنِ الميلادي الأول..!

تعتقدُ كثيرٌ من الشُّعوب أنها الأرقى والأفضل على غيرها، كثقافة قديمة، ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ.

كان العربُ القُدماء يرون أنفسهم الجنسَ الأكثرَ أصالة والأرقى معدنا على غيرهم من «العُلوج» الذين لا يحق لهم إلا أن يكونوا في عداد الخدمِ والعبيد..!

وكان اليونانُ يرون في أنفسهم أنهم مميزون من السّماء بعقولٍ استثنائية نادرة، لا تستطيعُ عقولُ بقية البشريّة أن تصلَ إلى مستواهم؛ لذا فهم من يحق لهم الكلام وحدهم، وعلى الآخرين أن يصمتوا..!

وكان الرومانُ من بعدهم يرون في أنفسهم أنهم الجنس الأرقى والعقل

المدبر، وأنهم سادة الدنيا الذين يحق لهم أن يحكموا أو يتحكموا بمصائر الشُّعوبِ التي مكانها خدمة هذا الجنس فقط؛ فغزوا العالم، شرقه وغربه من هذا المنطلق، وبناءً على هذا الاعتقاد..!

ولم تكن الفاشية الموسولينية والنازية الهتلرية في القرن العشرين إلا الامتداد الموروث لتلك النزعات القديمة التي حملتها أفكارُ الشُّعوبِ من قرونٍ عتيقة..

وكان الفُرسُ كذلك يرون أنفسهم أنهم الجنس الأرقى، ذو الدم الأزرق الذي يحق له وحده السيطرة على الآخرين.

وعلى صعيد الأديان كان اليهودُ يعتقدون أنهم أفضلُ الخلق طُرًا، فجنسُهم هو الجنسُ المفضلُ على كل الخليقة، وغيرهم «جوييم» أي عامة، همج، غوغاء.

ويعتقد أكثر المسيحيين أنهم أبناء الله الحصريين الذين يمثلون الحقيقة الكاملة على وجه الأرض

ويعتقد بعضٌ من المسلمين أنهم أفضل الخلائق طرا بدينهم الذي جاء مكملا لما قبله من الشرائع.

وحتى بقية الجماعات الدينية الأخرى كالزرادشتية والكونفوشيوسية والهندوسية والبوذية يرون أنفسهم أنهم الأفضل على غيرهم.. إلخ.

تلك نظرياتٌ عتيقة من تاريخٍ غَبَر ودَبَر، جَنت الشُّعوبُ على بعضها البعض بهذه النظرة الحمقاء. وهي نتيجةُ مدخلاتٍ ثقافيّة ومعرفيّة، تشكلت حينها، بأدوات عصرها، فهل من الجائز عقلا أن تظلَّ مثلُ هذه الثقافة إلى

اليوم؟!

تحتفظُ كل شُعوب المعمورة بملاحمها الفنية التاريخية التي تجسد بطولاتها وتشير إلى فضائلها وتفوقها كالإلياذة والأوديسا الإغريقية والمهابهارتا الهندية والشهنامة الفارسية وملاحم الصين واليابان والعرب وغيرها. فهل نصوغ اليوم ملحمة الإنسانية قاطبة كإخوة على ظهر هذا الكوكب؟!

مناهج التربية.. جذور وبذور

تعاني بعضُ مناهج التربية من شروخاتٍ واضحة في مضامينها وخلل بين في أهدافها؛ إذ تكرّسُ في أدبياتها التربوية أفكارَ الرفض والازدراء للآخر، تحت حجج واهية، تارة تتلبس لبوس الدين، وتارة أخرى لبوس العِرق أو الجغرافيا، وهي حالة من حالات القصور الفكري والمعرفي الذي ينتاب راسمي السياسات التعليمية، ورجالات الفكر التربوي، سواء على المستوى القُطري أو على المستوى العالمي. ومن هنا يتجسدُ خطاب الكراهية، وتتبدى ثقافة الرفض للآخر. ويكمنُ الخطر في أن هذه الكراهية والرفض يرتبطان عادة بالعقائد الدينية، فتكون الكراهية مركبة ومعقدة أكثر.

يؤمن الفردُ أنَّ عقائدَه التي توارثها عن آبائه هي قوانينُ الكون الأولى والأخيرة، وأنها الحقائق المطلقة، فيما الآخرون على خطأ كل الخطأ، ويعلق على هؤلاء الدكتور علي الوردي بقوله: إنه في الواقع قد أخذ عقيدته من بيئته التي نشأ فيها، وهو ولو كان قد نشأ في بيئة أخرى لوجدناه يؤمن بعقائد تلك البيئة من غير تردد، ثم يظن أنه يسعى وراء الحق والحقيقة. أ. هـ

من هنا جاء التعدي والعنف، وجاء إرهاب الغير، ووفقا لعالمة النفس المعروفة «ميلاني كلين» وهي من أبرز خلفاء فرويد في ميدان التحليل النفسي «أن العدوان يعتمل داخل الطفل من بداية الحياة». لهذا لا تحتاج الثورات والانقلابات فيما بعد إلا أن تقدح الزناد فقط فالبارود في الرأس، ولا يحتاج غير قدح الشرارة الأولى فقط. ومع تداخل الفرد مع الجماعة تتماهى أخلاقه

داخلها، ويصبح وحشا كاسرا لا تعرفه، وقد تطبع بطباعها دون أن يدري، ومعلوم للجميع أن منطق الجماعة غير منطق الفرد. الجماعة جياشة عاطفية، مسرفة في عاطفتها وفي نزقها، وأقل تحريض من قائد القطيع يجعل الجماعة ترتكب أبشع الأعمال وأقساها. ومن يتأمل عنف الجماعات يجد جنونا من الوحشية غير متخيل.

وتُعتبر المناهج المدرسية اليوم أحد المُدخلات المهمة في فكر وثقافة الأجيال الناشئة؛ حيث تَتَلقّى جملة معارف عامة، تنطلقُ في فلسفتها من عدة مرتكزات دينية وحضارية واجتماعية، تشكل المرجعية العامة لهذه المناهج التي تصوغ فكرة الناشئة وترسم ثقافتهم، أو قل تحدد الوجهة الرئيسية والملامح الأساسية فيها، ضمن ثقافة السّلام التي تزرعُها المدرسة في ذهنية التلميذ من وقت مبكر، ومعلوم مدى الأثر الكبير الذي تنتجه هذه «المُدخلات» في سُلوكِ الطفل أو الشّاب وثقافته وتعامله. ثقافة تُعنى بتعزيزِ قيم المحبة، والتعايش، ونبذ العنف، وتقبل الآخر مهما كان الخلاف أو الاختلاف معه، ثقافة تجسد قيم الديموقراطية والحرية والعدالة والمساواة بين مختلف أبناء المجتمع الواحد وقد صار العالمُ كلُّه مجتمعًا واحدًا. وتأتي مفاهيم: حقوق الإنسان، والتصالح مع الذات ومع الغير، وحفظ السلم المجتمعي ضمن أولويات ثقافة السّلام التي تطرحها مناهج التعليم العام والتعليم الجامعي. وقبل هذا الاهتمام بالنصوص الدينية التي تعزز من ثقافة السّلام وقيم المحبة بين الناس؛ لما لنصوص الدين من تأثير كبير على النفوس، ولكون النص الديني مقدسا في المقام الأول. وتأتي هذه الثقافة ضمن الطرق الوقائية الأولية التي تعمل على الحيلولة دون العنف،

وتحد من الانطباع السيء عن الآخر المُختلف معه، بسبب ما يسمى بالأوهام العنقودية التي تتشكل في أذهان البعض عن الغير.

تجب الإشارة في مناهج التربية والتعليم ومناهج الجامعات إلى أن الروابط بين الإنسانية قاطبة متعددة ومتنوعة، لا رابطة واحدة فقط، فالمواطنة الحديثة والمعاصرة مرتبطة بالنظام السياسي بدرجة أولى، وهو على الضد مما كان عليه الأمر عليه لاحقا قبل تشكُّل الدولة الحديثة التي كان الناسُ فيها إلى الرعايا أقرب منه إلى المواطنين، وكانت الروابط دينية في غالبها، أو عنصرية سلالية؛ أما اليومُ فالأمرُ مختلف، فحقوقُ المواطن في قُطره المحلي، مرتبطة بحقوق الإنسانِ وبالمواثيق الدوليّة إلى جانبِ الرباط الديني أو الجغرافي الذي يقبع فيه. وما ينبغي أن نعيه هنا أنَّ الالتزامُ بالسّلام والتسامح والقبول بالآخر ثقافة وسلوكا عمليًا في تصرفات الناس ووعيهم إلا بعد مراحل زمنية معينة على بناء هذه الثقافة من عدة مدخلات، منها المناهج المدرسية، إلى جانب ثقافة المسجد أو الكنيسة أو منصات التواصل الاجتماعي والسوشال ميديا والثقافة المنزلية. أي التربية على السلام والاحترام المتبادل بين كل الناس، وصولا إلى العيش معًا بسلام ووئام؛ ذلك أن السّلامَ في حقيقته الشاملة يتبلور من المحيط الداخلي للشخص، المرسخ بالقناعات العقدية والثقافية، ومن هنا يصل الجميع إلى الحالة المثلى والنهائية.

إن المعتقدات الأيديولوجية قيود لا شعورية، تُسيّج العقل والفكر بدون أن يعرف الشخص، وربما ادعى عنصر الجماعة ـ أي جماعة ـ أنه متحررُ الفكر، منطلقُ التفكير؛ لكنه لا يدركُ أنه حرٌ أو متحررٌ إلا داخل الدائرة

نفسها، فقط، وهي ما يمكن أن نسميها «حرية القمقم»..!

يحيطك المعلم/ المربي بدائرة ما، ثم يقول لك: كن حُرا داخل الدائرة..! وهي حرية تشبه حرية العصفور داخل القفص، أو حرية القطيع داخل الحظيرة الواسعة. وما لم يتجاوز هذا العنصر تلك الدائرة المضروبة حوله سيظل أبد الآبدين يعتقد أنَّ فكره ومعتقده هو الأصح وحده، وأن الآخرين على الخطأ، كل الخطأ. ومن هنا رأينا كيف تتوحش الأيديولوجيات، وكيف تفرط في عنفها تجاه الآخر.

من الأيديولوجية القُطرية إلى الأيديولوجيا الكونية

إنَّ منطلقاتِ التربية والتعليم، والتنشئة والتثقيف في القرنِ الواحدِ والعشرين غيرها في القرن العشرين، وغيرها في القرونِ التي قبله، وفقًا للمعطياتِ الجديدة، من بينها تحدياتُ المرحلة بعوائقها المتوقعة ومتطلباتها المستقبليّة، من أجل بيئةٍ كونيّةٍ إيجابيّة، تقلُّ فيها الحروبُ والصراعاتُ والإقصاءُ والارتيابُ من الآخر أي كان هذا الآخر.

إن التناقض الذي يبدو في عالمنا الإنساني؛ بل في الكون بشكل عام يشبه الغابة التي تكتنز بأنواع الأشجار، الضار منها والنافع، المر منها والحلو، الفارعة الطول بسيقانها البازغة والمتسلقة القصيرة. كل هذه الأشجار نافعة، وكلها تكملُ اللوحة الفسيفسائية التي تزيدُها جمالا وألقا. من أشجارِ الفاكهة غذاؤك، ومن شجرةِ المُرِّ العلقم دواؤك. هذا هو عالمُنا الجامعُ الذي نعيشُ فيه.

من داخلِ الصّف المدرسي تنطلقُ أخلاقُ التجارة، وأخلاق السياسة، وأخلاق العلم، وأخلاق الثقافة، وأخلاق الطب. من داخلِ فناء المدارسِ تتخلقُ الثقافاتُ، وتتشكلُ العاداتُ الحميدةُ والسُّلوك الإيجابي. من أفنية المدارس تتأسسُ ثقافة التسامح والتعايش والمحبة والصفح. تتأسس ثقافة في السلوك ووعيا في الضمير، رغبة في التسامي، لا رهبة من العقاب. من هنا تتأسسُ أخلاقُ الفرد، أخلاق المجتمع، أخلاق المدينة، أخلاق الدولة، أخلاق الأمة، ومن ثَمَّ أخلاقُ العالم. وعادة ما تنطبعُ الفضائلُ والقيمُ الإيجابيّة في

وجدانِ الناشئةِ الصّغار الذين يتم تلقينهم هذه الأخلاقيّات من وقتٍ مبكر، وتنمو معهم وجدانيًا كجزءٍ من شخصيتهم. وتتعززُ أكثر بالتربية المنزلية، كما تتعززُ أكثر وأكثر بالمواعظ الدينيّة في الكنيسة أو المسجد؛ أمّا اليوم فقد أضافت منصّاتُ التواصل الاجتماعي مدخلا آخر في التعليم والتربية، وبهذه المنظومة الشاملة يتم خلق وصياغة شخصيّةٍ كونيّةٍ ترى في الإنسانِ قيمة تنتهي عندها كلُّ القيم.

إنّ التصالحَ القادمَ لا يكفي أن يكونَ بشريًا فحسب؛ بل تصالحًا كونيًا وشاملا مع الطبيعةِ ذاتها التي أسأنا لها بعوادمِ المصانع العملاقة والمركبات، بحرائق الغابات، بتدمير النباتات، بالقضاء على حيوانات البراري، بتدمير التنوع البيئي، بالأبنية العشوائية، وكذا البحار التي تلوثت بعضُها وأصبحت مصدرًا للسُّموم والأمراض، وصارت للمدن الكبرى أمراضُها الخاصّة التي لا يعرفها الريفيون. هذه قضايا كونيّة يشتركُ في تحمُّلِ مسؤوليتها كلُّ الفريق الكوني على ظهرِ هذا الكوكب، وإن كانت الدولُ الصّناعيّة الكبرى أمامَ مسؤوليّة أكبر؛ كونها مصدرَ هذا الضّجيج والتلوث البيئي.

ولفتَ انتباهي هنا ما كتبه الباحث الدكتور عبدالله القيسي في قراءته لرسالةِ الرحمة بقوله: « الإنسانيّة عندي ليست سوى الرحمة كخُلق جامع، والرحمة هي هدفُ الأديانِ والرسالات السّماوية جميعًا، ومن هذا المنطلق فالقول بأن «ديني إنسانيتي» هروبًا من ذكر الإسلام، وكأنَّ الإسلامَ ضد الإنسان، أمرٌ غيرُ صحيح. لقد تلخصت رسالةُ الإسلام في الرحمة للعالمين، وليس فقط لعالم الإنسان، وإنما لعالم الحيوانِ والنباتِ والجمادِ أيضًا. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، الحب والرحمة أساس الحياة الإنسانية

السعيدة؛ لكن الحياة تحتمل فقدان الأولى ولا تحتمل فقدان الثانية. ا. هـ.

إنّ التأسيسَ لوعيٍ ثقافيٍ إنسانيٍ شاملٍ هو الواجبُ المقدس اليوم، إيقافًا لشلالاتِ الدم، وصراخِ الأطفالِ، ونحيبِ النساء اللاتي رافقن الأحزانَ أو رافقتهن الأحزانُ طويلا، وقد تحولت حياةُ الجميعِ إلى لظىً متسعر. هذا ما يقتضيه المستقبل، فالكرامة الإنسانية هِبةُ السماء للإنسان، والنيلُ من كرامةِ أي إنسانٍ على وجه البسيطة اعتراضٌ صارخٌ على قدرِ السّماء في الوجود. ثم إنَّ الشّرائعَ والفلسفات والقوانين لم تكن إلا من أجل هذا الإنسان المسؤول عن إدارةِ نفسِه، وعن الحفاظِ على مصالحِ الآخرين، ولم نجد في عُقوباتِ الديانات أشد عقوبة ممن يفسدون في الأرض. أيًا كان هذا الفسَاد.

نحتاجُ اليومَ إلى فلسفةٍ تربويّةٍ كونيّة جامعة، تعززُ في الناشئة الجدد روحَ الإنسانيّة، وثقافة القبول بالآخر، على الأقل إيقافًا لعدّاد الدم الذي يسيلُ يوميًا بسبب الثقافة الخاطئة التي تنشّأ عليها الصّغار، ثم مورست بعد ذلك سُلوكا عمليا.

وبحسب هانس كنج ـ وهو من أشهر علماء اللاهوت المنتقدين للكنيسة الغربية ـ: يجبُ أن يبدأ تكوينُ الوعي الأخلاقي والثقافة الأخلاقيّة لدى الأطفالِ والنشءِ في الأسرةِ والمدرسة، حتى يستطيعوا التأقلمَ مع عالمٍ معقدٍ، ومتعدد الثقافات.

ووفقا لديباجة منظمة اليونسكو: «إذا كانت الحروب تبدأ في عقول الناس، ففي عقول الناس أيضا يجب أن تبدأ عملية بناء السلام».

من الذات الفردية إلى الذات الكونية

الشّخصيّة الإنسانيّة في عالمها الخاص كيانٌ مستقلٌ بذاته، ويصح أن نقولَ عنها أنها عالمٌ لوحدها، وإلى هذا أشار الشّاعر بقوله:

أتزعمُ أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبر

ولكن هذا العالَمَ أيضًا هو جزءٌ من عوالم أخرى متصلةٍ به، وليس مادة هُلاميّة تسبحُ في الفضَاء الخارجي، إنه جزءٌ من المجرة الكونية، يؤثر ويتأثر بمن/ بما حوله. ولا يمكنُ ـ في المحصلة النهائية ـ تكوُّن عقلٍ جمعي إلا من عقلٍ فردي، وعلى نحو لا تذوب أو تتماهى فيه هُويّةُ الفرد وتتلاشى بصورةٍ نهائيّةٍ في الذّاتِ الجماعيّة، فلا بدّ من التوازنِ بين الأمرين توازنًا عادلا.

يجبُ أن يسعى العقلاء لصياغة الرؤية الجديدة للعالم، العالم غير المقتصر على الإنسان فحسب؛ وإن كان الإنسانُ هو جوهره الأول والأخير؛ بل على ما في الكون أيضا، وألا ينظر إلى الطبيعة على أنها مستودع حاجياته المادية فحسب، فيعمل على تجريفها في حومة التنافس على الحظ الأكبر منها، منطلقا من منزعه الأناني؛ لأنه سينتهي به المآلُ إلى تدميرها، ومعها سيدمرُ نفسَه من حيث لا يدري، كما أشارت إلى ذلك «الأبيقورية» التي رأت أن الطريقَ إلى السعادة يمر من بوابة الجسد..! أو الديوجينية الكلبية التي تعاملت مع الحياةِ بعبثيةٍ متناهية. هذا مفهوم قاصر لمعنى اللذة، كان محل انتقاد الكثير قديمًا، وهو اليوم أكثر رفضًا مع المتغيرات الجديدة.

إن عُقلاءَ العالمِ اليومَ أمام مسؤولية إنسانية، تصيغ فيها الفضاء الرحب

للجميع، متجاوزة الذاتيّة، سواء الذاتية الفردية أم الذاتية الجماعيّة، لتندمج مع الكل، اندماجًا بفاعلية إيجابية، مع تفهُّمٍ كبير لضرورة الاختلافات والتباينات التي يمكن استغلالها إيجابًا إذا ما تم التعاطي معها بحكمة؛ إذ يستحيلُ على أية ذات، سواء كانت ذاتا فردية أم جماعية أن تتحكمَ بما حولها من المتغيرات؛ لكن باستطاعتها صياغة قواعد عاقلة للتعاطي معها بما يتناسب معها. وأظن هذا هو جوهرُ الفلسفة الرواقية؛ ذلك لأن النزاعات التي نمارسها في حياتنا هي من تصورنا الخاطئ عن طبيعة الاختلاف، لا عن الاختلاف نفسه. والحقيقة أنه لا يتأتى ذلك إلا بالإدراك والوعي الكبير الذي تستوجبه المرحلة القادمة، وقد جربت البشرية كل أنواع الصراع. هذا ما فات عقلاءَ القرن العشرين وساستَهم، ويجب استدراكه اليوم وقد مر زمن غير يسير من القرن الواحد والعشرين من أجل وعي جديد ورؤية إنسانية لا «يتسلع» فيه الإنسان. رؤية منبثقة عن الأخلاق الفطرية، وعن قدسية الإنسان المؤهل للإجابة عن أسئلة العصر بثقة واقتدار؛ ذلك ممكن، ولكن بتجاوزه لأسوار الذات المضروبة حوله، والاندماج مع الفضاء الكوني الرحب بمنظور عقلي أوسع.

الفصل الرابع

الجَـلال والجَمـال

الفنون لغة مشتـركة جامعة

الفنون كمدخل في التربية

الإنسان والفن

الفنُّ قرينُ الإنسانِ وجودًا وعدمًا، فحيث وُجد الإنسانُ وُجد الفنُّ معه، فهو نشاطٌ إنسانيٌ اجتماعي، يعكس فلسفة المجتمع وثقافة الناس، وهو ظاهرةٌ قديمة قدم الإنسانية نفسها، على تفاوت بين طبيعة الفن ونوعه، ولا نستطيع أن نتخيلَ حياةً للإنسانية بلا فنٍ أبدا، ذلك أن الفنَّ جزءٌ من تفاصيل حياة الإنسان اليوميّة، في المطعم والمشرب والملبس والسلوك والكلام، مهما بدت حياة الناس متقدمة أو متواضعة، ومهما كان حياتهم الاجتماعية أو مستوياتهم الثقافية.

الفنُّ تطهيرٌ للنفوس، وهو روحٌ تسري بلا إرادة، وله في التربية والتهذيب، وفي التزكية والعرفان ما ليس لغيره من التأثير، وحاجة الإنسان للفن كحاجته للطعام والشراب؛ إذ الطعام والشراب يحفظ الجسد من الهلاك، فيما الفنون تحفظ الروح من التلاشي والذبول، وما قيمة الجسد الصحيح إذا تلاشت روحه أو ذبلت؟!

وقد عَرفت الأممُ الفنونَ من قديم الزمانِ بمختلف ألوانها وأشكالها فمارستها بثقافة وفكر أزمانهم، أوقل بالروح الفنية ذاتها لتلك الأزمان التي أنتجتها، باعتبار الفنون منتجًا اجتماعيًا وزمنيًا لأي أمة من الأمم، ولأي مجتمع في الشرق أم الغرب، وتنعكس فلسفة المجتمع نفسه على الفن بجميع أشكاله. وكانت الفنون عاملا كبيرا من عوامل السلم، كما كانت

عاملا آخر أيضا من عوامل الحروب، باعتبارها محركا نفسيا، وربما ماديا كما هو الشأن مع حصان طروادة؛ حيث استطاع الإغريق الانتصار بالفن على الطرواديين بعد أن عجزوا عن الانتصار بالقوة المادية المعروفة، كما تحكي الأسطورة.

تعددت الفنون نسبة إلى مواضيعها، فعرف الفن البَصَري والفن السمعي وأيضا نسبة إلى أماكن نشوئها فعرف الفن الشرقي والفن الغربي، بل وادخل كل مكان من هؤلاء فن قائم بذاته، كالفن الفارسي والفن الصيني والفن الهندي، وفي الفن الغربي هناك الفنون الإيطالية والفنون الألمانية والفرنسية.. إلخ. إلى جانب هذا التصنيف أيضا هناك الفنون الرمزية والفنون والكلاسيكية والفنون الرومانتيكية. وهناك الفنون الحركية والفنون الساكنة، كما أن هناك أيضا الفنون الروحية، إلى آخر هذه القائمة من التصنيفات والتقسيمات، وهي دليل ثراء وتنوع وتنمُّ عن رؤيويات فلسفية وجمالية متعددة.

نحن إذن أمام جزئية مهمة من العناصر التي تكون الشخصية الإنسانية وتؤثر على سلوكه، لها تاريخها ولها مدارسها وعوالمها الخاصة، وبهذه الخاصية يستطيع القائمون على أمر التعليم، وعلى الثقافة جعلها أحد الموجهات الثقافية والسلوكية للناشئة والشباب في كل الدول من خلال مناهج التعليم العام ومنصات التواصل الاجتماعي وبرامج الفضائيات وغيرها، مع مراعاة خصوصية كل شعب وكل دولة، ومع الأخذ في الاعتبار أيضا وفي نفس الوقت المشترك الفني الجامع بين هذه الشعوب قاطبة، فبالفن نحيا، وبه تتواصل مسيرة الإنسانية بلا عنف أو إرهاب، إذ لو اشتغل الناس بالفن لما اتجهوا

للحروب، وستسود سياسة الفن، أكثر من فن السياسة، فالفن سياسة الأمم المتقدمة، بينما السياسة فنُّ الأمم المتخلفة كما يقال.

الفن ومناهج التعليم

لا تقتصر مناهجُ التربية والتعليم في مراحلها الأولى على تلقيننا المعلومة فحسب؛ بل على تكوين الملكات العقلية والفنية، وإكسابنا قدرا معينا من الفن والجمال، يمثل ـ فيما يمثل ـ أسلوب حياة في تعاطينا اليومي مع الآخرين، في المنزل والشارع والمدينة والقُطر، وهو أسلوب مشترك مع كل الناس، كثقافة منبعها الالتزام النفسي الطوعي، لا مجرد تمثيل عابر، أو لأن القانون الرسمي للدولة يتطلب ذلك. ويتمثل هذا السلوك الفني في احترام الذوق العام والحفاظ على البيئة والترقي المجتمعي بشكل عام، وكلما ازدادت معارفنا ترقت ذائقة الفن وحاسة الجمال بصورة تلقائية، يعززهما إلى جانب المناهج المدرسية أيضا ثقافة المجتمع وطرائق تعامله، وكذا الخطاب الديني والثقافي، ومنظومة النشاط المجتمعي اليومي.

نؤكد هنا على أهمية الفن في المناهج التعليمية خلال مراحل التعليم الأولى، وهذه الأهمية لا تكمن في تلقين الطالب عددا من الأوامر والنواهي، على غرار افعل أو لا تفعل، إنما يجب أن تتعزز في نفسيته كثقافة وسلوك، أساسه الذوق والشعور بالجمال الداخلي الذي ينعكس جمالا خارجيا في السلوك والخطاب، كما ينعكس في استقراء معالم الجمال والتعاطي معها، ذلك أن الذي تقل أو تضعف عنده حاسة الشعور بالجمال لا يقدر للحياة قدرها، قد يدخل حديقة غناء يتجول فيها ثم يغادرها دون أن تجيش عواطفه أو تتحرك مشاعر الجمال لديه، لأن حاسة الإدراك الجمالي لديه ضعيفة،

أو بدائية. ثم أي قيمة لكل سراجاتِ الدنيا إذا كان القلبُ نفسُه مظلما؟! وإلى هذا المعنى أشار المفكر المصري المعروف سلامة موسى في كتابه «فن الحياة» بالقول: إن الإنسان لا يمكنُ أن يكونَ إنسانًا إذا اقتصرت اهتماماته وهمومه على الطعام واللباس والسكنى، وإنما هو يرتفع إلى الإنسانية عندما تجد الثقافة الفنية، ثقافة الترف الفكري مسكنًا في ذهنه تأوي إليه؛ بل تمرح فيه وتمتزج بخلاياه وتعود جزءا لا ينفصل من حياته، يوجهه ويكيفه ويعين له التصرف والسلوك، يضطره أن يعيش المعيشة الفنية.

إن الفنَّ بقدر ما ينطوي على التذوق والإحساس والتواجد النفسي فإنه أيضا ينطوي على قيمةٍ فكريةٍ أساسُها العقل، ومن ثم يصح القول: إن الفنون قلبٌ وعقلٌ معا. فكر وقلب معا، بما هو صناعة وإبداع، وأيضا بما هو تلقٍ واستقبال؛ ذلك أن بعض الأعمال الفنية القديمة لا تزال إلى اليوم موضع دراسة وبحث واكتشاف على تقادم عهدها، وهنا تتكامل العقلية الإبداعية، ويتكامل معها السلوك الإنساني.

لقد تغيرت مفاهيم التربية وفلسفاتها عما كانت عليه في السابق من التربية والتعليم للحرفة إلى التربية والتعليم للحياة، بكل تفاصيل الحياة الجامعة، فكل زمن فلسفته ورؤاه الخاصة التي تأتي صدى لحاجيات الزمن نفسه؛ بل لما يريده المستقبل، لأن منجزات اليوم هي من تفكير الأمس، ومنجزات الغد من تفكير اليوم، هكذا تسير الحياة، ممتلئة بالإنجازات التي أساسها التطلعات والأحلام.

الفنون مستودع أسرار النفس

إنّ الفنَّ في المدرسة إلى جانب كونه متعة وتذوقا فهو أيضا وسيلة

لتشخيص التلاميذ سيكولوجيا من وقت مبكر، من خلال طبيعة الرسوم والألوان وزوايا الرسم واتجاهاتها، فهذه الرسوم تُقرأ فنيا، جماليا، كما تُقرأ أيضا نفسيًا، إذ أنّ قراءة تعابير الرسوم واختيار الألوان تكشف عن شخصية الطفل وميوله وتفكيره، كمحددات مفتاحية أولية، وهو أسلوب يُستخدم حتى مع نزلاء المصحات النفسية الكبار؛ حيث أن الطفل أو حتى الكبير المكبوت بعدد من الضغوط البيتية أو المجتمعية يحتاج للتنفيس عن هذه المكبوتات من خلال المسار الفني المتاح له، من رسم أو موسيقى أو غناء أو ألعاب، فينقل مشاعرَه عبر هذه الفنون تلقائيا، بالإسقاط أو التقمص، ومن ثم يأتي دورُ المحلل النفسي الذي يعيد ضبط البوصلة وفقًا لما توافر لديه من الإبداع الفني؛ لأن الإبداع الفني يعتمد على اللاشعور بدرجة رئيسية، واللاشعور مستودعُ أسرار النفس؛ علما أنّ الفنَّ هنا قد لعب جزءًا من العلاج النفسي، متمثلا في تحطيم بعض الأوهام الداخلية، وفي استفراغ الطاقة السلبية، وتقليل التوتر، إن لم يكن صناعة الاسترخاء النفسي، بفعل الثقة بالذات التي تتكون لديه إذا ما أحس أنه أبدع في عمله الفني، أو لاقى بعض التشجيعِ من معلمه أو أسرته، فيتكيّف الطفل مع محيطه من جديد، ومن ثم يمارسُ نشاطه بصورة طبيعية. وتزداد هذه القيمة أكثر لدى الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة من المعاقين جسديًا الذين تهتز ثقتُهم بأنفسهم أمامَ نظرائهم بسبب الإعاقات التي يحملونها، أو الأطفال الذين يعانون من التأتأة والتلعثم، ومن ثم تصبحُ الحياةُ أكثرَ شاعريّة.

وبحسب الفيلسوف المعاصر ادجار موران: إن الفترة الأكثر ملاءمة للفضائل المعرفية للجماليات والفنون هي المراهقة. إنه سنُّ التطلعات

والبحث والثورات الذي تختمرُ فيه التطلعات بين شرنقة الطفولة والاندماج في عالم الكبار.. إنه فترة البحث عن حياة أخرى أكثر حرية، وأكثر جماعاتية معا، حيث يمكن للمرء أن يحقق ذاته، ويندمج في الأخوة في الوقت نفسه. إنه زمن البحث عن الحقائق.

بالفن يستطيع المسؤولون عنه وعن التعليم والتربية الإسهام الإيجابي في صياغة المواطن السوي، المواطن الإيجابي، الخالي من العقد والكبت التي تتسع دائرتها يوما بعد يوم وسط هذا التوحش الحاصل اليوم. يجب تناول الفن كمادة رئيسية ضمن مناهج التعليم والتربية، ليمثل هدفا ووسيلة في وقت واحد. فتتم صناعة وعي عام فني، بحس فني مشترك من الطفولة وحتى اليفاعة والشباب، كغذاء روحي يكتسبه الطفل من أيامه الأولى، ويشب معه.

نتكلم عن منظومة الفنون قاطبة، من رسم وتشكيل ونحت وموسيقى وعزف ونشيد، بما في ذلك الفنون الروحية، لتكتمل الروح الفنية، وتشكل فسيفساء جمالية، تمثل في منظومتها هذه ضمانة ثقافية من التطرف والعنف والكراهية، فالفن اليوم أحد وسائل العلاج النفسي، خاصة مع تعقيدات الحياة التي تتزايدُ يوما بعد يوم، ولا يغسل أدرانها ويزيل قتامتها إلا الفن.

الفن والدين

المتأملُ في مسيرة الدين ـ أي دين ـ من جهة، والفن من جهة أخرى يجدهما متلازمين؛ بل وقرينين منذ ظهرت الأديان لأول مرة وحتى اليوم، فبينهما توأمة تاريخية لا تنفك، وإلى هذه الجزئية أشار المفكر الإسلامي

المعاصر علي عزت بيجوفيتش في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب؛ حيث قال: الدين والأخلاق والفن فرع سلالة واحدة انبثقت بفعل الخلق الإلهي. وهو يشير إلى نقطة مهمة ربما لم يسبقه إليها أحد، وهو ارتباط الفن بالدين من اللحظات الأولى كتعبير عنه، قبل اللاهوت الذي ساد من بعد، فالدراما ـ كما يقول ـ ذات أصل ديني، سواء من ناحية الموضوع، أو من ناحية التاريخ، كانت المعابد هي المسارح الأولى بممثليها وملابسها ومشاهديها، وكانت أوائل المسرحيات الدرامية طقوسًا ظهرت في معابد مصر القديمة منذ أربعة آلاف سنة مضت. وقد انبثقت الدراما الإغريقية من أغاني الكورال في تكريم الإله «ديونيسوس»، وكانت المسارحُ تقامُ بالقرب من معبده، وكان العرضُ المسرحي يستمر خلال الاحتفالات المتعلقة بعبادة ديونيسوس كجزء من الخدمة الدينية.. لقد كانت الرسوم الأولى والتماثيل والأغاني والرقصات جزءا من الشعائر، وإنما انفصلت مؤخرًا عن العبادة، وأصبحت توجد مستقلة، فعندما رسم الإنسان البدائي الحيوان الذي يعتزم صيده كان هذا نوعًا من العبادة، صلوات لكي ينجح في مهمته، وكان الهنود الحمر يرسمون خطوطا ملونة مختلفة على الرمال خلال احتفالاتهم الدينية، وكانت هذه الخطوط جزءا مكملا للشعائر. أ. هـ

والمفكر بيجوفيتش يستقرئ ظاهرة فنية مهمة لها امتدادها التاريخي العريق، وهي ظاهرة فنيّة المعمار الديني الذي بلغَ أعظم إلهاماته ـ كما يقول ـ في بناء المعابد في الهند القديمة وكمبوديا وأيضا مساجد العالم الإسلامي، وكنائس القرن العشرين في أنحاء أوروبا وأمريكا، مستعرضًا أسماء أشهر الكنائس ذات التصاميم الجمالية الفريدة، مشيرا إلى أن الأعمال الفنية

الكبرى لعصر النهضة تقتصر في تناولها على الموضوعات الدينية بدون استثناء، وأن لوحات «مايكل انجلو» وتماثيله التي نحتها تمثل استمرارًا بارزًا للمسيحية، ويمكن الإشارة إليها باعتبارها إنجيلا من ألواح وحجارة، وأن كثيرًا من الإبداع الموسيقي والأوبرا كانتا ذا أصلٍ ديني. ثم إنّ نشيدَ الأناشيد في التوراة أبرز تجلٍ لارتباط الفن بالدين قديما؛ أما بعد الإصلاحية اللوثرية في أوروبا فقد تطورت الفنونُ أكثر، وشهدت طفرة جمالية وتقدمية بعد حركة لوثر، وكانت مكبوتة قبل ذلك، كما كان الفكر كله مكبوتا. يقول اومبيرتو ايكو ـ وهو أحد الروائيين والنقاد اللادينيين الإيطاليين ـ: «من الصعوبة بمكان فهم ثلاثة أرباع الفن الغربي تقريبًا إذا ما كنتَ تجهلُ أحداثَ العهدين القديم والجديد، إضافة إلى قصصِ القديسين».

في الفكر الإسلامي الفنُّ قرينُ الدين؛ إذ ترتبط الفنون بالإنسان في أفراحه بالأناشيد والأهازيج، وترتبط بموته بالمواويل الحزينة والابتهالات الملحنة. قراءة القرآن إلى نفوس الناس أقرب كلما كان الصوت أجمل، وكلما انتظم على مقام موسيقي معين. الأذان للصلاة ذاته قائم على مقامات موسيقية معينة، السَّمَاع الصوفي والضرب يزيدُ النفسَ صفاء كلما سجع الصوت وانتظم الضرب. اللوحات التشكيلية والمطرزات والمنمنمات التي أبدعتها الصُّوفية تكاد تكون فنا مستقلا بذاته على امتداد العالم الإسلامي.. زخرفات المساجد ونقوشها النباتية والهندسية عالمٌ من الإدهاش والجمال معا، المعمار الديني بما يشتمل عليه من الأبواب والنوافذ والقباب والمآذن والزوايا والأعمدة والمُصندقات قيمة فنية مستقلة بحد ذاتها. وهي تنتشرُ في كل بيوت العبادات من قديم الزمن. ذاتُ الشأن أيضا لدى كنائس اليهود أو

المسيحيين، وكذا مع معابد الهندوس والبوذيين والزرادشتيين، وكل الأديان. حقا، الأمر كما قال محمد قطب: إن الدينَ يلتقي في حقيقة النفس بالفن، فكلاهما انطلاقٌ من عالم الضرورة، وكلاهما شوقٌ مجنحٌ لعالم الكمال.

لقد تحولت العماراتُ الدينية فنونًا مستقلة عن غيرها من المعمار، ومنذ قديم الزمن، ذلك لأن المعماريين قد أبدعوا في العمارة الدينية ما لم يبدعوه في غيرها، فأضخم المساجد والهياكل والمعابد بدت كأنها من عمل السحر؛ بل لقد نسب بعضُ المتأخرين بعضا من تلك المباني إلى الجن، لعجز الأواخر أن يأتوا بمثل ما أتى به الأوائل في هذا الجانب، وهي صفة غالبة لدى عوام الخلق، إذ ينسبون كل مُدهشٍ وعجيبٍ لقوى غيبية غير القوى المادية الأرضية .الإنسانية. وكما قال الشاعر:

وكان أربابُ الفصَاحة كلما رأوا حُسنًا عدوه من صنعة الجنِّ

ولا تزال معالمُ الفن الإسلامي قائمة إلى اليوم منذ مئات السنين، متمثلة في الجوامع الكبرى، في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وصنعاء واستانبول وأصفهان، ناهيك عن فنون وجماليات المسجدين «الحرم المكي والحرم المدني»؛ أما فنون الأندلس ففوق أن تُحكى، أو يشار إليها في عجالة كهذه. وما ينطبق على المساجد الإسلامية ينطبق أيضا على كنائس اليهود والمسيحيين في أغلب العواصم والبلدان، فقد تميزت بالإبداع الفني والجمال المعماري البهيج. وقديما قيل: لا يمكن أن يوجد فنٌّ عظيمٌ أو مراحل فنية هامة دون أن تكون ملتحمة بديانات كبيرة.

وتجدر الإشارة هنا إلى القطيعة التي حصلت بين بعض رجال الدين من جهة، والفن من جهة أخرى، وهي قطيعة ناتجة عن جهلٍ بماهيّة الفن

والدين معا، وعن ارتيابٍ من كل مجلوب من خارج حدود البيئة، ومن ثقافة الغير المطبوع ذهنيا بصورة سلبية. هذه القطيعة أفضت إلى بعض التوحش الروحي، وإلى «مَيْكنة» الشعائر الدينية، بطريقة آلية، جعلتها مفرغة المحتوى خالية الروح؛ لهذا تخلّقَ العنفُ والإرهابُ من أوساطهم، وسادت ثقافة الرفض والإقصاء والقطيعة؛ لأنّ هذه النفس أغفلت جانبَ الروح، وأغفلت جانبَ الجمال والسّلام الداخلي الذي يتخلّقُ بالفن وتصقله الروح.

عالمية الفن

لو قُدر للُغاتِ العالم جميعِها أن تنقرضَ في غمضة عين لقالت الفنونُ: أنا لغة الكون الوحيدة التي يفهمني جميع الخلق بلا استثناء. الفنون تنقل المعاني بصمت، وتترجم الأفكار بصريا؛ بل قد تقولُ لوحة ما، أو قطعة موسيقية ما لم تقله خطبة أو كتاب.

إنَّ عالميّةَ الفنِّ من عالمية الروح، ولما كانت الروحُ الإنسانية واحدةً في جوهرها كان الفنُّ واحدًا في منبعه وجوهره؛ لذا اعتبرَ البعضُ الموسيقى لغة الروح التي تفهمها البشريةُ قاطبة بلا ترجمان، كما هو الشأنُ مع اللغات الأخرى.

ومن يتتبع ـ باستقراءٍ دقيق ـ تاريخَ الفنونِ قديمًا وحديثًا يجد بينها تأثرًا وتأثيرًا على الرغم من مشقة الاتصال والتواصل سابقًا، وعلى الرغم من التحيزات العرقية والدينية التي كانت تمثل عائقًا كبيرا من عوائق التواصل بين الشعوب، ومع هذا فقد فرضت الروح الفنية نفسها فيما بينها، متجاوزة الجغرافيات بصلابتها والأيديولوجيات بتحيزاتها.

يذكر اختصاصيو الآثار اليمنية القديمة أنهم عثروا على تمثالين برونزيين تم اكتشافهما عام 1931م في منطقة «نخلة الحمراء» جنوب شرق صنعاء، وتم نقلهما إلى ألمانيا لترميمهما ودراستهما، وبعد الترميم والدراسة تبين أن التمثال الأول الكبير «238سم» للملك ذمار علي يهبر، والثاني «الصغير» لأحد أبنائه. وتبين أن التمثال الأكبر مكتوب عليه باللغة والخط اليوناني للفنان اليوناني «فوكاس» الذي أنجز هذا العمل؛ أما الثاني فبالنقش السبئي وأشار إلى مساعد الفنان في عملية صناعة التمثال «لحي عم». ويرجعُ تاريخ التمثالين إلى القرن الثالث الميلادي. وهذا يعني أن عملية استقدام فنية قد تمت بين اليمنيين وبين اليونانيين للاستعانة بتصميم التمثال ونحته على الأرجح، لأن اليونان في تلك الفترة كانت على قدر عالٍ من الشهرة الفنية والإبداعية في هذا الجانب، على الرغم من وجود تماثيل أخرى قبل ذلك من تصميم وعمل فنانين يمنيين. هذا نموذج عابر فقط لمدى التلاقح والتلاقي بين فنين أحدهما من جنوب شرق أوروبا والآخر من جنوب غرب آسيا في زمن سحيق كان الاتصال والتواصل بين هذه الشعوب ضربا من المخاطرة والمجازفة.

الفن اليهودي

تأثرت اليهوديةُ بالفنون البابلية إبان السّبي البابلي في القرن السابع قبل الميلاد؛ حيث تعلموا اللغة البابلية، ومع اللغة تعلموا أيضا مجمل الفنون المرتبطة بها، وانعكس ذلك واضحًا في تلمودهم المعروف بالتلمود البابلي، علما أن اليهود قبل السبي البابلي لم يكونوا أهل فن أو حضارة؛ بل أهل دين فقط، وبتعاليم شفاهية يتوارثونها، فشكلت لهم عقيدة الشتات لاحقا

قوة ثقافية ودينية، بنوا عليها بعد عودتهم وتحريرهم من قبل الملك الفارسي قورش، غير أن هذا لم يزدهر كثيرًا، نظرًا للحروب والصراعات التي ارتبطت بهذه الجماعة، وعدم استقرارهم، ولجفاف الروح الفنية أيضا لديهم، على العكس مما هو عليه الشأن عند المسيحيين أو المسلمين بعد. فقد اقتصر الفن اليهودي على الطقوس الدينية البحتة ولم يتجاوزها كثيرا إلى غيرها. ثم إن انطواء اليهود على أنفسهم وانزوائهم على ثقافتهم وعقيدتهم الخاصة قد حرمهم متعة التأثر الفني والاستفادة مما لدى الأمم الأخرى، كما تأثرت المسيحية بالرومان، وكما تأثر الفن الإسلامي بالفن المسيحي والفن الفارسي والقبطي. والعجيب أنه حتى اليوم تكاد تكون منظومة الفنون اليهودية قليلة، قياسا بإبداع اليهود في مختلف المجالات الأخرى. وقياسا إلى تنوع عرقياتهم وثقافاتهم التي تشكلهم نسيجهم السياسي والديني.

الفن المسيحي

بلغت الحضارة الرومانية شأوًا عاليا في مجال الفنون، كما بلغت كذلك في شتى المجالات الأخرى، العسكرية والقانونية والسياسية والإدارية، وذلك باعتبارها حضارة لها قوتها في جميع المجالات، ومن هذه المجالات الفنونُ والجماليّات بشكل عام. ولأن المسيحية اقترنت بالحضارة الرومانية وهي في أوج قوتها فقد حدث أن «توثَّنَت» المسيحية، قبل أن «تتمسيح» روما نفسها في مرحلة لاحقة، كما أشرنا سابقا؛ لأن الأقوى يؤثرُ في الأضعف بطبيعة الحال، فتداخل تاريخُ الفنِّ المسيحي مع تاريخ الفن الروماني، كما تداخل الفن الروماني نفسه مع الفن اليوناني من قبله، وكما تداخلت الفنون المسيحية مع الفنون الإسلامية بعد ذلك أيضا. وقد اعتمد الفنُّ المسيحي كثيرًا من

عناصر الفن الروماني مادة له، فورث الفسيفساء الرومانية وصارت بعد ذلك ثقافة فنية مسيحية بحتة. وتمثل اليوم الموسيقى الجنائزية وموسيقى الكنائس، إضافة إلى اللوحات التشكيلية عالما مستقلا بذاته، وبرز في هذا الجانب أعلام كبار صاروا مدارس فنية، استلهموا موضوعاتهم الفنية من التراث المسيحي، كما أشرنا سابقًا.

الفن الإسلامي

تأثرَ الفنُّ الإسلاميُّ بفنونِ الحضاراتِ التي كانت سائدةً في جنوب الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق، وفارس لاحقا، حتى استوى على سُوقه، وصار بعد ذلك فنا مستقلا بطابعه الخاص، له مدارسه وتياراته المتعددة. بعد ذلك تأثر الأوربيون بالفن الإسلامي بجميع فروعه، بما في ذلك حروف الخط العربي التي استخدموها في زخارفهم دون معرفة معانيها، سواء عن طريق حضارة الأندلس الإسلامية، أو عن طريق الحروب الصليبية بعد ذلك، وكلما شارفت الحدود الأوروبية على البلاد الإسلامية كان تأثرها أكثر، لهذا فإن بقايا فنون اسبانيا والبرتغال «الأندلس سابقا» لا تزال تحاكي فنون المغرب العربي إلى اليوم، والعكس أيضا صحيح. وقد ذكرنا سابقا أن الصوفية برعت كثيرًا في هذا المجال، خاصة صوفية الدولة العثمانية التي امتزجت بغيرها من الثقافات الأخرى، في المجتمع المفتوح حينها، وشكلت حالة فريدة من هذا الجمال، خاصة في الفن التشكيلي.

وما ينقص الفنون الشرقية والغربية على حد سواء هو تركيزها على المشتركات الجامعة في الفكر والثقافة التي من الممكن أن تلعب دورًا إيجابيًا في التقارب الشرقي الغربي، وفي الحوار المسيحي الإسلامي، وفي تعزيز ثقافة

الانفتاح على الآخر والتسامح معه. وتستطيع مناهج التعليم والتربية اليوم من خلال المنظمات الدولية ذات العلاقة صناعة وعي فني جمالي مشترك، في منظومة الفنون للجيل الجديد والناشئة، كجزء من التوجه التربوي الجديد.

موسيقى بيتهوفن.. روح الشرق في الغرب

يرى الفيلسوف المعاصر زكي نجيب محمود في كتابه «الشرق الفنان» أن العالَمَ كله على طرفين اثنين من حيث تعاطيه مع الوجود، الأول: الشرق الأقصى: «الهند والصين وما جاورهما» وينظر إلى طبيعة القضايا ببصيرة خارجية تنفذُ إلى الجوهر الباطن، نظرة فنان بحدس واستشفافٍ يدرك من خلالهما الحقائق، وقد تفانى معها روحيًا بالذوق والاستجلاء.

والآخر هو الغرب: «أوروبا وأمريكا»، ويتعاطى مع حقائق الوجود بأدواتٍ تبدو نقيضةً لأدوات الأول، أي بالنظر العقلي، وبالمعادلات التحليلية، وبالحس والتجربة والمشاهدة التي تُفضي إلى النتائج الرياضية، القائمة على المقدمات المنطقية؛ وهذه هي طبيعة العلم، لا طبيعة الفن. مع الإشارة إلى وجود تداخلٍ بين الرؤيتين لدى هذين الطرفين، أي قد يكون العقلُ الشرقي رياضيًا تحليليًا، وقد يكون العقلُ الغربي فنانا متذوقا. وما تناوله هو على سبيل الإجمال. ومع التنبيه أيضا إلى المنزع الفلسفي والفكري الخالص لدى الفيلسوف زكي نجيب محمود، ولا علاقة له هنا برؤية صاموئيل هنتنجتون الذي يؤكد على ذات الرؤية، ولكن من منظور سياسي آخر، كامتدادٍ لرؤية أستاذه المستشرق الشهير برنارد لويس.

وفيما بين الشرق الأقصى والغرب: الشرقُ الأوسط، والذي يُعتبر حالة جامعة للرؤيتين المتناقضتين، ففيه روح المتصوف وقلب الفنان، وفيه أيضا عقلُ العالم ومنطقُ الفيلسوف. وقد أصاب الفيلسوف زكي نجيب محمود

في رؤيته هذه بالاستقراء والتحليل، ومن يتأمل في تفاصيل الروح الجامعة للدين الإسلامي مثلا، وهو بطبيعةِ الحالِ يشكلُ مرجعية كبرى في الثقافة والسلوك على مستوى الشرق الأوسط يجد فيه منذ بواكيره الأولى روح الصوفي وعقل المعتزلي، ذاكرة السلفي ومنطق الفيلسوف؛ وما ظاهرتا العقل والنقل في المذاهب الفقهية إلا التجلي الأبرز لهذه الظاهرة، ناهيك عن المنهجيات العلمية للجماعات والفرق الكلامية الأخرى التي تشكلت على هذا الأساس.

مرة أخرى: عقل المعتزلي وقلب المتصوف، مع الإشارة إلى أنّ التصوفَ هنديُّ المنشأ من قبل ظهور الديانات السماوية كلها، وحين انتقل إلى هذه الديانات اصطبغ بها، كل ديانة على طريقتها، مع وجود مشترك جامع بين الكل.

لن نستطردَ كثيرًا هنا، فموضوعُنا هو سيمفونية بيتهوفن الخامسة تحديدًا، وهي من أشهر المعزوفات الموسيقية في تاريخ الموسيقى، إلى جانب السيمفونية التاسعة التي تقتربُ منها موضوعًا، بأدائها الكورالي، وجوها اللاهوتي، مع ما يصاحبُ هذا الجو من روحٍ طاغية على المشهد، خاصة في الجزء الأخير منها، والأخيرة اعتبرها البعضُ أعظمَ عملٍ موسيقي في تاريخ الموسيقى كله قديمًا وحديثًا. ولا تزال هذه الأعمال موضوع دراسة وإعجابٍ إلى اليوم؛ على الرغم من مرورِ ما يزيد عن مئتي عام. كما لا تزالُ مصدر إلهامٍ لرجالاتِ هذا الفن، وتحتلُّ زخم المكان والزمان على المستوى الشعبي قبل النخبوي، لا في الغرب فقط، ولكن أيضا في الشرق.

أما لماذا هذه السيمفونية دون غيرها؟ فهذا ما سنوضحه بعد قليل.

الحقيقة إنّ هذه السيمفونية على وجه التحديد بقدر ما كانت غربية المنشأ والمنهج والذوق إلا أنّ روحَ الشرق تتجلى فيها، كما لو أنها شرقية أساسًا. ولعل هذا هو سرُّ الجمال والإبداع الذي تجلى فيها.

برزت روحُ الشرق في الغرب من خلال الموضوع الرئيسي لها أساسًا «القَدَر». وهي الفكرةُ الدينية التي تسكنُ العقل الباطن للإنسان الشرقي أكثر من عقله الواعي، فيما هي عند الغربي أقل، وأحيانا لا وجود لها، إذا ما توقفنا أمام فلسفات اللّا أدريين والإلحاديين..

هذا على صعيد الموضوع الرئيس، وفيما يتعلق بثيمياء النص «المضمون الملحمي للنص السّمعي» فقد أجابَ عنه بيتهوفن نفسه، حسبما يروي عنه تلميذه أنطون شندلر حين سأله عن الفكرة الافتتاحية للمعزوفة الخالدة، فأجاب: «إنه صوتُ القدر يطرقُ الباب».

إنه صراع الوجود في هذه الحياة عبّر عنه بيتهوفن موسيقيًا بنصٍ سمعي، يُدرَك حدسًا، كما عبر عنه قبل ذلك فيلسوفُ الشعراء وشاعرُ الفلاسفة أبو العلاء المعري فلسفيًا في واحدة من أبدعِ «سيمفونياته الشعرية» التي تُعتبر ملحمة فكرية، فيها الجدل والشك والتقرير والحقيقة معا، في قصيدته الأشهر «غير مُجدٍ في ملتي واعتقادي».

وهي القصيدة التي حاكاها وتفوّقَ عليها الشاعر البردوني، القصيدة المجرة الحاشدة «فلسفة الجراح» ومنها هذا النص القريب إلى موضوع المعزوفة:

بي ما علمتُ من الأسى الدامي وبي من حُرقةِ الأعماقِ ما لا أعلمُ
بي من جراح الروح ما أدري وبي أضعافُ ما أدري وما أتوهّم

وكــأنّ روحي شـعـلـة مـجـنـونـة تطغى فـتـضرمني بمـا تـتـضرّم
وكــأنّ قـلـبي في الـضـلـوع جـنـازة أمشـي بـهـا وحـدي وكلّي مأتم
أبكي فتبتسمُ الجراحُ من الـبـكـا فـكـأنّـهـا في كـلّ جــارحـة فـم
يا لابتسـام الجـرح كـم أبكي وكم ينسابُ فوق شفاهه الحمرا دم
أبـدًا أسـيـرُ على الجـراح وأنتهي حيث ابتدأتُ فأين منّي المختم؟
وأعـاركُ الـدنـيـا وأهـوى صـفـوهـا لكن كـمـا يـهـوى الكـلامَ الأبـكم
وأبــاركُ الأمّ الحـيــــاة لأنّــهــا أمّي وحـظّي من جـنـاهـا العلقم
حـرمــاني الـحـرمــان إلا أنّــنـي أهْذي بعـاطـفـة الحـيـاة وأحلم

هذا ما قاله البـردوني المعاصر، ذو النزعة الكلاسيكية في عمله الإبداعي بشكل عام، وإن كانت روحُ الرومانسية الحزينة متدفقة هنا، كما تبدو متدفقة لدى بيتهوفن، ذي النزعة الإبداعيّة الكلاسيكية، ولكن في بداية العصر الرومانسي الأوروبي، وإذا كان بيتهوفن مبدعًا استثنائيا قد تصالحَ مع الصّمم الجزئي منتصف عمره، فالنهائي آخره، فكذلك الشأنُ مع البردوني الذي عاش متصالحًا مع العمى منذ بداية حياته حتى نهايتها. كلاهما أحبا الحياة، مُعارِكَين قدَرها، كما رأينا في لوحة البردوني السابقة، وكما يبدو في السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، وكما يقول أيضا: «.. أنا أشعرُ بالسعادة الغامرة على هذه الأرض. وأنا لا أتحملُ الشعورَ بالتعاسة. سوف أمسك القدر من عنقه. لن يقدر على الانتصار علي. آه...كم أنت جميلة أيتها الحياة. وكم جميل أن تعيش فوق هذه الحياة ألف حياة»؟!

إنَّ تلك الألحان اعتملت بأدوات النفس الداخلية قبل أن تتجسد بأدوات

اللحن الخارجية، عاشها الفنانُ روحًا بالتأمل والاستبطان قبل أن يعيشَها واقعًا بالتذوق، وهذا هو سرُّ إبداعها الخالد. وبطبيعة الحال فالتأمل والكشف والذوق والحدس والاستبطان مفردات تنتمي إلى المعجم الشرقي أكثر من المعجم الغربي القائم على مفردات مقابلة لها كالحس والمشاهدة والتجريب والتحليل والاستنتاج. المفردات الأولى تنتمي للوجدان الشرقي، فيما الأخرى تنتمي للعقل الغربي.

إنها تشبه لوحة «العشاء الأخير» أشهر اللوحات المقدسة التي أبدعها دافنشي لمدة ثلاثِ سنوات، كان يتفانى فيها روحيًا، كما يتفانى الناسكُ في صومعته، وهو ذاتُ الشأن مع بيتهوفن الذي أبدع هذه السيمفونية في أربعِ سنوات متتالية ما بين: 1804 إلى 1808م، متفاعلا بصورة ما مع مشهد الثورة الفرنسية الذي كان حديث العامة والخاصّة في أوروبا جميعها آنذاك، مع ما أحدثته هذه الثورة من تغييرات جوهريّة في الثقافة والسُّلوك والفكر.

أخيرًا الفنُّ يوحّدُ الشعوبَ على اختلاف عقائدِهم وأوطانهم وأعراقهم؛ بل ويقيمُ جسورَ التواصل التي هدمتها السياسة، وفي عالم الفن وعوالمه نستطيع القولَ أنّ الشرقَ غربٌ، وأنّ الغربَ شرق، وكلاهما واحد.

مصدرُ الفنِّ واحدٌ هي الذائقة الإنسانية، وغايته واحدة، هي الإمتاع، ومهما اختلفت أذواقُ الإنسانية إلا أنها مشتركة في منزعها الإنساني العام.

فهرس

تقديم 5

استهلال 11

الفصل الأول الدين والإنسان.. مسيرة حياة 13

الدين.. الهوية الجامعة 15

مدخل 15

حاجة الإنسان للدين 18

الفلسفة والدين 21

الحروب والدين 23

اليوم الآخر والدين 27

الإرهاب والدين 29

الإرهاب المعاصر 30

الرأسمالية والإرهاب 32

التدين والدين 35

الحضارات والدين 38

الطبيعة والدين 45

المستقبل والدين 49

المشترك الإبراهيمي.. المعادلة الجامعة 52

الكتب المقدسة.. منطلقات في العيش المشترك 58

مع الأديان الأرضية 59

الزرادشتية 59
الكونفوشيوسية 61
الوصايا العشر 62
أولا الوصايا العشر في الكتاب المقدس 63
ثانيا: الوصايا العشر في القرآن الكريم 64
الشريعة المحمدية.. الإعلان الجامع 69
لاهوت الجبال الثلاثة 72
لاهوت الأيام الثلاث 77

الفصل الثاني الصوفية.. روح الشرق في الغرب 79
الصوفية فلسفة وسلوك 81
استهلال..... 81
شرق أم مشارق؟ 81
الثقافة الأوروبية.. المنطلقات والقيم..... 82
التصوف.. النشأة الأولى 89
التصوف الهندي 89
التصوف الفارسي 92
خراسان والتصوف 93
التصوف اليوناني 95
التصوف اليهودي 97
التصوف المسيحي 98
التصوف الإسلامي 103

ابن عربي ونظرية وحدة الوجود 105

الفصل الثالث التعليم والتربية.. نحو تأسيس مواطن كوني 109

في مفهوم التربية 111

اللاهوت المدرسي 113

مناهج التربية.. جذور وبذور 116

من الأيديولوجية القُطرية إلى الأيديولوجيا الكونية 120

من الذات الفردية إلى الذات الكونية 123

الفصل الرابع الجَلال والجَمال الفنون لغة مشتركة جامعة 125

الفنون كمدخل في التربية 127

الإنسان والفن 127

الفن ومناهج التعليم 129

الفنون مستودع أسرار النفس 130

الفن والدين 132

عالمية الفن 136

الفن اليهودي 137

الفن المسيحي 138

الفن الإسلامي 139

موسيقى بيتهوفن.. روح الشرق في الغرب 141

كتاب د. ثابت الأحمدي "المُواطِن العالمي .. رؤية في المشتركات الجامعة" نصٌ من النوع الذي يستوقفك ويستدرجك للقراءة حتى لو كانت مشاغلك كثيرة يُشعِرك منذ العنوان بأنك أمام تفكيرٍ جديد في قضايا العالم المرتبك الذي تعيشُه وأنت تنتهي من العقدين الأوليين من القرن الواحد والعشرين، في منطقة غارقة في الحروب وتعاني من الخيبات والإحباطات الكبيرة، وتشهد صراعاتٍ قاتلة ومثبِّطة للهمم وللعمل الجماعي المتضامِن في سبيل الخروج من جلباب التاريخ المظلم، وتعيق التعامل مع عالم مرتبك لم يعد كما كان في بعض فترات القرن العشرين أنموذجا يطمع الكثيرون في منطقتنا باللحاق به في جميع مجالات البناء والتطوير ومكافحة الفقر.

ويزداد إغراء قراءة هذا الكتاب إذا كنت من بلد كاليمن، عصَفَت به الصراعاتُ والحروبُ وألحقت به الكثير من الدمار والخراب عن العثور على مدخل عملي لإعادة نسيجه الاجتماعي على الأقل إلى سابق عهده الجمهوري، ناهيك عن بناء "مواطَنَة" جامعة بين أبنائه للتضامن في العمل معًا في سبيل بناء "وطن" يتسع للجميع ويسمح للجميع بالمساهمة في بنائه ويوفر لهم فرص التفتُّح وتحسين شروط حياتهم على نحو يحررهم من سطوة ماض بغيض يجثم على صدورهم ولا يريد أن يتزحزح.

يطوفُ بنا الكاتبُ في آفاقِ المعرفة الشائعة والمتاحة حول الأديان والمذاهب والفلسفات المختلفة، ويقترب من هذه المعارف المتعددة والمتناقضة أحيانا، بعقلية منفتحة وبعقيدة راسخة بأن"دعوة السماء واحدة منذ الأزل"، وأن "الإله واحد، والأصل البشري واحد، والكوكب الذي نعيشُ عليه واحد، والمآل واحد، إذنْ فلتكن الأخلاق واحدة، وليكن الخيرُ واحدًا والعيش واحدًا". ويدعم ما يدعو إليه بأقوالٍ من الديانات الموحِّدة و"الأرضية" ومن القوانين الطبيعية والتجريبية.

د. علي محمد زيد

دار بسمة للنشر الإلكتروني
00212771814934 Bassmabook
contact@darbassma.net www.darbassma.net